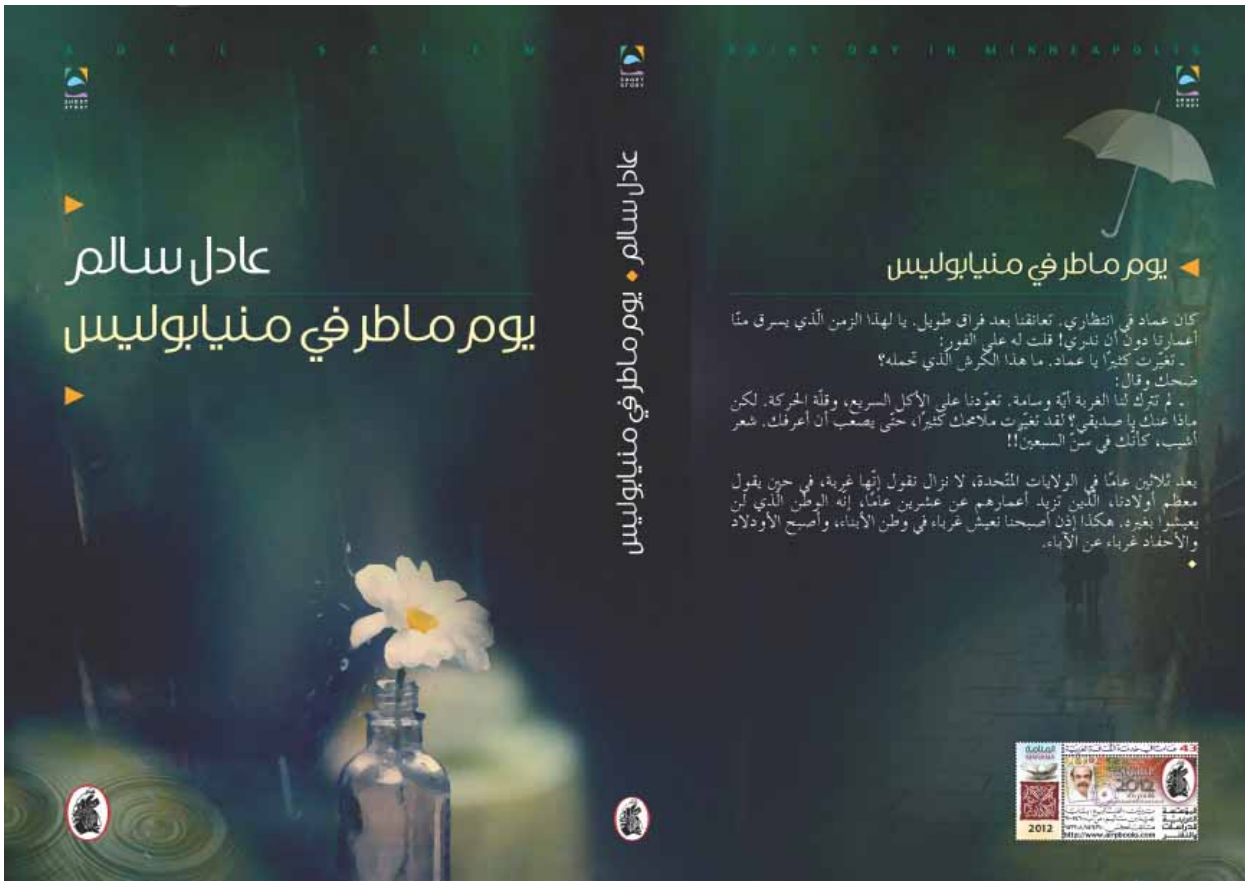

عادل سالم

يوم ماطر في منيابولس

قصص

الفهرست

محمد الكاثوليكي.

إرهابي في القطار.

أغرب حفلة زفاف.

أفعى الحديقة.

الخيانة الكبرى.

الرهان الأكثر خسارة.
السلام عليكم.
الطريق إلى الولايات المتحدة.
العنكبوت.
الهجرة إلى الجنة.
انتقام مظلوم.
جاك الحزين.
حرب الفئران.
يوم ماطر في منيابولس.
رحلة إلى فورت لودرديل.
زوجة كوبية.
زوجته والقطة.
شعرة الموت.
غالب في المصيدة.
في فخ امرأة.
في مهب الريح.
لعيونك يا فلسطين سأغني.
ليلة لن تنسى.
محمد في قفص الاتهام.
مقصلة الدولار.
ممنوع الكلام في الطائرة.
ممنوع تأييد السيد.
من أرغن إلى السعودية.
ليلة القبض على القاتل.

محمد الكاثوليكي

"انتباه، على السجناء التالية أسماؤهم أن يحضروا فورا إلى غرفة الزيارة لوجود زوار بانتظارهم":

– فرانك ماكلوسكي.
– جاك مكاريل.
– محمد جمعة.
– زياد يوسف.
– روبرت جي بي.

منذ الثامنة صباحًا ومكبرات الصوت في سجن (دولوث) الفدرالي في شمال ولاية (منسوتا) تنادي على السجناء تباعًا الذين وصل أهاليهم وأصدقاؤهم لزيارتهم.

كان زياد سعيدًا بسماع اسمه في قائمة الزوار. لقد وصلت زوجته حوالي التاسعة صباحًا. كان زياد ينتظر هذه الزيارة على أحر من الجمر، فهي أول زيارة له منذ أسابيع طويلة.

كان جاهزًا للزيارة منذ الصباح؛ حلق ذقنه، واستحم، ورش على نفسه بعض العطور المتوفرة للسجناء، وصار يغني ويتمايل كأنه في عرس حقيقي. رآه صديق سجين يدعى بسام فسأله:
– صحّتان يا زياد، من قدك؟ لديك زيارة مع الأحبة. كأنك ذاهب إلى حفلة عرس.
– ضحك زياد وقال له:
– لكني سمعت اسم محمد جمعة، هل تعرفه لم أسمع اسمه من قبل.
– لا أعرف، ربما جاء يوم أمس إلى السجن دون أن ندري. افحص الأمر بالزيارة وبلغني بالخبر.
– ألن تُزار اليوم؟
– لا أعتقد أن أحدًا سيزورني اليوم. تعرف أن أهلي من نيويورك والمسافة من هناك طويلة ومكلفة.
– سأخبرك بعد العودة، إلى اللقاء.

سار زياد من البناية رقم 207 حيث يسكن في إحدى غرفها في الطابق الأرضي متجاوزا البناية 209، وغرفة الألعاب، والمكتبة، ثم عمارة الإدارة، وبعد وصوله بناية العبادة المخصصة للصلاة لجميع الديانات، انعطف إلى اليمين باتجاه غرفة الزيارة. كانت زوجته قد خرجت من غرفة الزيارة الكبيرة إلى الحديقة الجانبية وهناك تستطيع من خلال الشبك الحديدي الفاصل بينها وبين السجن أن ترى السجناء في طريقهم إلى الزيارة، وعندما رأته نادت عليه:
– زياد.
ولوحت له بيدها.
– منى، بحبك...

وأرسل لها قبلة في الهواء.

كانت بملابسها الصيفية. شعرها يتمايل إلى اليمين والشمال كأنه تاج على رأسها.

لم يكن باستطاعته الاقتراب من الشبك أو التسليم عليها إذ عليه أولاً المرور عبر الغرفة للتفتيش قبل الدخول.
أشار إليها بيده، وفتح الباب باتجاه الغرفة. لم يكن سجان التفتيش جاهزًا، وكان الباب الأوسط المؤدي إلى غرفة الزيارة مغلقًا وعليهم الانتظار.

خلال انتظاره خطر على باله التعرف إلى محمد جمعة. نظر إلى وجوه السجناء المنتظرين معه. لم ير أحدًا شكله عربي أو حتى قريبًا منهم. بدأ يتفحص أسماءهم المكتوبة عادة على صدورهم في القسم الأيسر بجانب القلب.
فجأة لمح أحد السجناء الشباب، كان قصير القامة، شكله من أمريكا الجنوبية يشبه المكسيكيين، وقد كتب على قميصه (م. جمعة). ابتسم له وقال:
– السلام عليكم، مرحبًا!
نظر إليه محمد جمعة وقال له بالإنجليزية:
– لم أفهم، هل قلت لي شيئًا؟
فقال له بالإنجليزية:
– يبدو أنك لست عربيًّا، هل أنت مسلم؟
– لا لست مسلمًا. أنا مسيحي كاثوليكي.
تغيرت ملامح وجه زياد. قطب حاجبيه متعجبًّا، وقال له:
– ولكن اسم محمد جمعة ليس مسيحيًّا!
– هذا اسم أبي. لقد توفي أبي رحمه الله وأنا في بطن أمي، ولأنها كانت تحبه كثيرًا فقد أطلقت علي اسمه ليظل حيًّا قي قلبها.
– يا لهذا الوفاء العظيم، وهل كانت أمك مسلمة؟
– لا أمي مسيحية كاثوليكية، وقد ربتني على ديانتها.
– قصتك غريبة بعض الشيء، أمك مسيحية كاثوليكية وتحب أباك المسلم وتسميك محمد جمعة وتنشئك نشأة مسيحية؟ وهل أنت من المكسيك؟
– لا، أنا من بورتوريكو. جاء أبي إلى هناك وتزوج أمي، ولكنه توفي بعد زواجهما بعام في حادث سير.
– ليرحمه الله، ومن أين كان أبوك؟
– أبي من الأراضي المقدسة، من القدس.

– من القدس؟ أنا من القدس.

فرح محمد لذلك وسلم عليه، ثم قال:

– منذ زمن وأنا أبحث عن شخص من القدس، فأنا عازم على زيارتها للتعرف إلى أهل أبي هناك. هل تعرف أحدًا من عائلة جمعة؟

– للأسف لا يا محمد، هل تقبل أن أناديك باسم محمد؟

– لم لا، فهو اسمي وأنا أحبه لأنه اسم أبي.

تعجب زياد من رده، فمحمد العابودي الذي يعرفه في شيكاغو كان يسمى نفسه مايك، ولا يريد أحدًا أن يناديه محمد أمام الأمريكيين، ومحمد أبو العينين كان يلقب نفسه (مو)، أما محمد المسيحي فيرحب أن نناديه باسم محمد.

قال له:

– لقد تركت القدس منذ سنوات طويلة، حينما كنت طالب مدرسة، ولكن يمكن أن أساعدك بإرسالك لأحد أقاربي وهو سيدلك على هدفك.

سكت ثم تمتم في سره: "لكن لن يكونوا سعداء لأنك مسيحي".

– شكرًا زياد.

اتفق الاثنان على التحدث في الموضوع بعد العودة من الزيارة.

بعد عامين، كان محمد جمعة قد أنهى مدة سجنه، وأفرج عنه، فخرج مصممًا على زيارة القدس كما وعد زياد للتعرف إلى أهله هناك. كان يحمل معه كل الأوراق اللازمة من شهادة ميلاد والده وجواز سفره الأردني القديم فسكان القدس كانوا يسافرون من خلال جوازات سفرهم الأردنية، وبعض الصور القليلة لوالده، ولم ينس الاتصال بزياد في (شيكاغو) والتأكد من صحة أرقام الهواتف التي أعطاها له لكي يساعده بعض أقارب زياد في البحث عن أهله.

وصل محمد جمعة مطار تل أبيب، وبعد تفتيش كامل حقائبه لأن اسمه يثير الشبهة لدى موظفي أمن المطار، فكل من يسمع باسمه يعتقد أنه من فلسطين، لكنه لا يعد نفسه فلسطينيًّا، ليس لأنه يكره الفلسطينيين، ولا لأنه ينكر أن والده فلسطيني، ولكن لأنه تربى وعاش وتعلم في (بورتوريكو) (تابعة للولايات المتحدة)، ولم يبق لديه من جذور عربية سوى الدم، لكن الثقافة والانتماء شيء آخر.

في القدس نزل في فندق جبل الزيتون، فندق عربي، والموظفون كلهم من أبناء القدس، وكانوا سعداء بمساعدته في الاتصال برقم هواتف عم زياد يوسف، عبد الله يوسف، الذي جاء إلى الفندق، وتعرف إلى محمد جمعة، وأخذه معه في سيارته حتى أوصله إلى أحد أفراد عائلة جمعة.

وبعد البحث والتدقيق عرفوا من يكون، فاتصلوا بعمه ماهر تاجر الخضار في باب خان الزيت بالبلدة القديمة، فجاء مسرعًا والتقى بابن أخيه الذي يحمل اسم أخيه محمد جمعة. يا للمفاجأة...!

قال لابن أخيه:

– أبوك هاجر إلى أمريكا منذ ثلاثين سنة ثم انقطعت أخباره ولم نعد نسمع عنه شيئًا. اعتقدنا أنه تخلى عنا. لم نعرف أين حطت به الأقدار ولا أين يعيش، فلم يتصل بنا منذ مغادرته القدس إلى عمان. لم يكن لدينا جهاز هاتف كما اليوم؛ فإسرائيل في حينه كانت تعطل حصول المواطنين العرب على أجهزة هواتف.

يا لها من مصادفة!

اجتمعت العائلة مساء اليوم نفسه، فقد حضر عمّاه ماهر وماجد وعمتاه سعاد وعلياء، وبعض الأقارب والأولاد.

لم يصدقوا أن أخاهم توفي منذ زمن بعيد. كانوا يلومونه لأنه لم يتصل بهم، فإذا بهم يلومون أنفسهم لأنهم لم يبحثوا عنه.

– نبحث عنه؟ قالت علياء.

– أين نبحث عنه ونحن لا نعرف له أثرًا؟

كانوا سعداء بوجوده في اليوم الأول. لم يثقلوا عليه بالأسئلة واكتفوا بالتعرف إليه وتناول العشاء معه. طلبوا منه المبيت لديهم، ولكنه أصر أن يعود إلى الفندق لأنه يشعر براحة هناك. بعد أن أوصله عمّاه إلى الفندق، سأل ماجد أخاه ماهرًا في طريق العود:

– أظنه جاء يبحث عن تركة أبيه.

هز ماهر رأسه وقال لأخيه ماجد:

– حسب الشريعة الإسلامية، بما أن أخانا محمدًا توفي قبل والدنا فلا يحق له أن يرث شيئًا، لكن بالنسبة إلى شقته في البلدة القديمة، فهذه حق له فقد اشتراها أبوه قبل سفره من ماله الخاص وهي حق لابنه بعده.

فقال ماجد:

– أنت تعرف سعادًا أختك تسكن هناك منذ ثلاثين عامًا (منذ سفر أخينا) وقد صلحت في البيت ورممت الكثير من جدرانه واستحدثت الحمام والشبابيك.

– ولكنها تسكن هناك منذ ثلاثين سنة دون أن تدفع إيجارًا أنسيت؟

– لماذا لا نتحدث معها الليلة بالموضوع.

عاد ماهر وماجد إلى البيت ليجداها ما زالت هناك مع علياء، فطرح ماجد عليها الموضوع:

– لا أدري كيف أبدأ يا سعاد، ولكن تعلمين أن البيت الذي تسكني فيه ملك أخينا محمد، أما وأنه مات فقد أصبح ملك ابنه، ولكن بالنسبة إلى والدنا لا يرث. أولاد الأخ لا يرثون من مال جدهم إن توفي والدهم قبل جدهم.

اسودّ وجه سعاد:

– وماذا تقصدون؟

– نقصد أن محمد جمعة ابن أخينا من حقه البيت وعليك أن تتفاهمي معه.

فقال ماهر:

– لا أعتقد أنه سيسكن فيه، ولكنه بالتأكيد سيبيعه وأنت أولى الناس بشرائه.

– ولكنني صلحته وأستحق التعويض.

نظر إليها ماهر وقال:

– تعويض؟! لقد سكنت به ثلاثين عامًا دون أن تدفعي إيجارًا. يا إلهي، ألا تحسبين ذلك ولا تنسي أنت في البيت لست مستأجرة؟! لقد قال لك تسكنين لحين عودتي ولم يطلب منك ترميمه.

– يا سلام! هل اتفقتما علي؟

تدخلت علياء:

– يا أختي سعاد، الولد أحق بمال أبيه، علينا أن نشجعه للبقاء عندنا. اعرضي عليه أن تشتريه منه لعله يبيعه بسعر مناسب.

قال ماجد:

– يمكنك مراضاته فهو لا يعرف أسعار البيوت عندنا.

قالت علياء:

– لا تخدعوا الولد يا ماجد، ما هذا الكلام؟ لو سأل عن قيمته فعليكم تقديم المعلومات الصحيحة له. اتقوا الله.

في اليوم التالي ذهب ماجد إلى الفندق وصحب ابن أخيه محمد إلى زيارة تفقدية في البلدة القديمة، وعندما اقتربا من المسجد الأقصى اقترح عليه زيارته.

بعد دخول المسجد قال ماجد لابن أخيه:

– تعال نصلي ركعتين معًا. هل أنت على وضوء؟

– لكني لست مسلمًا.

ضحك ماجد واعتقد أنه يمزح:

– ها ها، وماذا تكون، شيوعيًّا؟

– لا لست شيوعيًّا، أنا مسيحي.

احمر وجه عمه ماجد، وعبس، وفتح عينيه،حملق به وسأله:

– هل أنت جاد فيما تقول؟

– نعم أنا مسيحي كاثوليكي، على دين أمي.

– وماذا عن دين أبيك؟

– يا عمي، أنا لم أر أبي أصلاً كما تعرف.

– وهل أنت مقتنع بالمسيحية؟

– طبعًا، كما أنت مقتنع بالإسلام!

تمتم ماجد بالعربية:

– يا لفرحة آل جمعة فيك!

فقال محمد:

– ماذا قلت؟ لم أفهم.

– اسمعْ، عليك التفكير جديًا بالموضوع. إنها فرصة أمامك لتعلن إسلامك هنا في أولى القبلتين، وتتوب عن سنوات الجاهلية.

– جاهلية؟! لا أفهم ماذا تقصد بالجاهلية.

عمي، أرجو أن تتفهم الوضع. أنا لم أحضر هنا لأصبح مسلمًا، ولكن للتعرف إليكم.

– وماذا نقول للعائلة وللناس؟ أنقول لهم أن محمد جمعة ابن أخينا مسيحي كاثوليكي؟!

– نعم قل لهم الحقيقة.

– سيسخرون منا ويجعلوننا مضغه في الأفواه. محمد المسيحي، محمد النصراني، محمد يتخلى عن الإسلام. لقد فاجأتني، بصراحة لم أتوقع منك ذلك، سأتركك تفكر بالموضوع وسنتحدث الليلة عندما نلتقي مساء مع بقية الأهل، كلهم مشتاقون لك، لا تقل لهم إنك مسيحي انتظر حتى نتناقش.

– يا عمي ليس في الموضوع أسرار، وديني ليس موضوع مساومة. هل لك أن تأخذني إلى كنيسة القيامة.

أخذه عمه وهو يتفجر غيظًا، قال له بعد أن وصل سأنتظرك هنا على الباب:

– يمكنك التجوال وحدك في الداخل.

تركه يدخل وانتظر هو خارج الكنيسة محتارًا، متسائلاً:

– لماذا جئت لنا إذًا؟ ليتك لم تحضر. مسيحي؟! محمد المسيحي. ألم تعرف أمك أن تسميك جورج، أو جون؟

أخرج هاتفه النقال من جيبه واتصل بماهر:

– ألو، ماهر.

– أهلاً ماجد، كيف حال ابن الأخ؟

– لن تصدق لو قلت لك؛ محمد جمعة مسيحي!

– والله كنت أتوقع أن يكون مسيحيًّا، ولكني عندما سمعت اسمه محمد ظننت أنه مسلم فخاب ظني. يا للمصيبة!

– وكيف سنعالج الأمر؟ ألم تحاول إقناعه بالتحول إلى الإسلام؟

– حاولت يا ماهر، فقال لي إنه مقتنع بالمسيحية، ورفض نقاش الأمر. ما رأيك لو أحضرنا له عالمًا مسلمًا

ليحاوره؟

– فكرة جيدة، سنتناقش الليلة عندما نلتقي.

أغلق ماهر الهاتف وبدأ يتصل مع علياء، وسعاد، ليخبرهما الخبر الذي زلزل الأرض.

– محمد جمعة مسيحي.

– ماذا تقول؟ ابن أخي مسيحي! يا لآل جمعة. لعن الله (بورتوريكو) وكل من يسافر إليها. أخي محمد، الله يغفر له، هو المسؤول، سيتحمل ذنب هذا الولد، لماذا تزوج من مسيحية؟ لماذا لم يتزوج من أهل بلده ودينه؟

– يا علياء، ماذا فعل؟ لقد تزوج حسب شرعنا، وهل كان يعرف أنه سيموت؟!

أما سعاد عندما سمعت بالخبر من ماهر قالت له:

– مسيحي، مسيحي، هو حر في دينه، ولكن ...

صمتت لثوان ثم تابعت:

– المسيحي لا يرث أباه المسلم.

عرف ماهر قصدها، فقال لها:

– صحيح، وفي هذه الحال يصبح البيت ملكنا جميعًا.

– وهل ستطلبون مني أثمان حصصكم؟

– هذا شرع الله يا سعاد. للذكر مثل حظ الأنثيين.

– ولكني رممت البيت وأعيش به مع زوجي وأولادي.

– ألم تقولي قبل قليل أن الابن المسيحي لا يرث أباه المسلم شرعًا.

– صحيح.

– ما دام الحديث عن الشرع، فلماذا تحاولين الهروب مما يقول الشرع في تقسيم الميراث؟ أم أنك يا سعاد تبحثين عن الأفضل لك.

– يا عيب الشوم، أتلاحق أختك في بيت في البلدة القديمة عمرة أكثر من مائة سنة.

– وهل تريدين يا سعاد أن نتركه لك ليرثه من بعدك أولادك من آل القواسمي؟ يا سعاد هذا ملك آل جمعة، وليس القواسمي.

اجتمعت العائلة مساء اليوم قبل الاجتماع مع محمد جمعة الذي كان يستريح في الفندق بعد أن تعب من المشي في شوارع القدس. كان مسرورًا من الناس والشوارع، وأكثر ما شد انتباهه منظر القدس من جبل الطور. من هناك شاهد القدس كلها، كما سعد بزيارة كنيسة القيامة وكنيسة الجثمانية قرب باب الأسباط.

كانت علياء قد أعلنتها صراحة أنها لا تريد شيئًا من بيت أخيها وأنها تعد البيت من حق الولد سواء كان مسيحيًّا أو مسلمًا، وقالت لهم:

– عندما توفي أبوه (أخونا) فقد كان في بطن أمه لا مسيحيًّا ولا مسلمًا، فحقت له أموال أبيه، أما وأنه كبر ولم يصبح على دين أبيه فهذه مسألة طبيعية حيث ربته أمه ولا يفقده حقه، لأن حقه كان يجب أن يصله قبل 30 عامًا.

احتدت سعاد وقالت:

– لا يا علياء، إنك تريدين تغيير شرع الله. هذه أموال أخينا لا يحق لابنه المسيحي أن يرثها.

ماجد كان له رأيه الشبيه بعلياء، فقد رفض أن ينال شيئًا من بيت أخيه، وقال لهم:

– أنا لن أشارك في أكل مال اليتيم، واقترح أن يبلغوه بالموضوع، وأن تحاول سعاد شراء البيت منه.

اعترض ماهر وقال:

– لا أوافق أن نتنازل له عن البيت، ما رأيكم أن نجعله وقفًا لآل جمعة.

ردت سعاد:

– فكرة طيبة، أرجو ألا يكون ذلك معناه أن أترك البيت.

هزت علياء رأسها غير موافقة:

– لا تزعلوا مني، سأخبره بحقه.

قال لها ماهر:

– وكيف ستخبرينه وأنت لا تتحدثين الإنجليزية؟

– سيترجم لي ماجد.

– استمر النقاش ولم يتوصلوا إلى حل حتى جاءهم محمد جمعة مع ابن ماجد عصام الذي كلفه أبوه بإحضاره.

بعد العشاء، قالت له علياء، وترجم لها ماجد:

– يا محمد يا بني، نريد إعلامك أن أباك كان له شقة قديمة في البلدة القديمة من القدس، تسكن فيها الآن عمتك سعاد، كان أبوك رحمه الله قد طلب منا الاعتناء بها لحين عودته، أما وأنه مات ليرحمه الله ،فهي من نصيبك، هذا حقك، فإن أحببت أن تتركها لك للمستقبل ها عمتك سعاد تعتني لك بها، وإن أحببت أن تبيعها فعمتك أولى الناس لأنها تسكنها مع زوجها وأولادها منذ سفر أبيك.

نظر محمد إليهم واحدًا واحدًا ليرى تعبيرات وجوههم، وصمت لحظة ثم قال:

– ليرحمه الرب. أحب أن أرى البيت الذي من رائحة أبي لأصوره وأتصور به، ولكن...

نظر إلى عمته سعاد موجهًا كلامه لها، فكان قلبها يدق لما سيقوله:

– لن أبيع البيت لعمتي سعاد.

فاحمر وجهها، ثم تابع كلامه:

– ولن أبيعه لأحد، ولكن...

وجم الجميع.

– سأتركه لها ولأولادها فهي أحق الناس به.

استغربوا كلهم قرار ابن أخيهم.

فرحت سعاد وانفرجت أساريرها.

هجمت على ابن أخيها تطبع عليه القبلات.

– شكرًا يا محمد، شكرًا.

ثم قالت له بالإسبانية ما تعلمته منذ يومين:

– جراتياسْيَسْ.

سألته:

– هل أنت جاد في كلامك ولست خجلاً؟

– عمتي، لم أحضر لأقاسمك أموال أبي. جئت لأتعرف إلى أهلي وأقاربي، الناس الذين أحمل اسمهم.

اغتاظ ماهر، فالبيت أصبح لسعاد وحدها..قال له:

– أرجو أن تفكر قبل اتخاذ قرارك النهائي.

نظرت إليه سعاد بحنق.

– يا ماهر، هل تريده أن يغير رأيه؟ لقد كان أكرم منك.

– صحيح، وقلبه أكثر بياضًا من قلبك.

قالت علياء:

– إذًا يا عمتي حتى لا تحصل مشاكل في الإرث مستقبلاً يفضل أن تتنازل لها رسميًّا عن البيت حسب أوراق شرعية وقانونية.

– أنا جاهز متى شئتم.

– والآن ماذا عن دينك يا بني؟ أما زلت مصرًّا أن تظل مسيحيًّا وتغضب ربك؟

– يا عمتي أنا لا أغضب الرب، بل أسعده لأنني اخترت طريقه، وهو الذي جاء بي إلى هنا وشجعني على أن أبحث عنكم وأحبكم وأتنازل لعمتي عن البيت.

قالت لها سعاد:

– يا علياء، الدين لله، اتركيه وراحته.

كان النقاش حول الدين قد امتد لساعات، ولم يستطع أحد أن يغير رأي محمد جمعة.

قال ماهر مختتمًا الحديث بالموضوع:

– تصوروا كيف سيكون الوضع بعد مائة سنة من الآن في(بورتوريكو)! من سيصدق أن عائلة جمعة

المسيحية من أصول فلسطينية مسلمة؟!

في مطار تل أبيب كانت سعاد وزوجها وأولادها في وداع محمد جمعة، قبلته، وعانقته طويلاً ثم بكت قائلة:
– أنا أستعيد الآن صورة أخي محمد جمعة عندما ودعناه قبل ثلاثين سنة.

(تشرين أول، 2008)

إرهابي في القطار

ركب طارق القطار في المحطة المركزية في شيكاغو عائدًا إلى (دنفر) في ولاية كولورادو حيث يعيش بعد أن أنهى زيارة عائلية إلى أخته التي تقيم هناك مع زوجها.

بعد انطلاق القطار، صعدت في المحطة التالية امرأة عجوز بدت له في الستين من عمرها، أومأ إليها يحييها، وأفسح لها مجالاً للجلوس. جلست إلى جانبه بعد أن جلس هو بجانب النافذة ليراقب حركة الشوارع، والجبال، والوديان التي يمر القطار عنها.

نظر إلى الساعة، كانت حوالي التاسعة صباحًا. أسند رأسه إلى الخلف وراح يقلب دفتر الماضي أمام مناظر الطبيعة الخلابة، وبعد لحظات كان يغط في النوم.

استيقظ على صوت ساعته، جهاز الإنذار كان يصدر صوتًا موسيقيًّا يذكره بشيء ما. نظر إلى ساعته مرة أخرى، ثم وقف واستأذن ممن تجلس بجانبه وذهب إلى الحمام، فيما كانت هي مشغولة بقراءة كتاب صغير تحمله في جيبها كان على ما يبدو رواية لكاتب أمريكي.

بعد عودته من الحمام، جلس على كرسيه، وبدأ يتمتم بصوت منخفض لا يسمعه أحد:
"الله اكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، قد قامت الصلاة...". حرك يديه ووضعهما على وسطه وبدأ يقرأ الفاتحة في سره بعد أن أغلق عينيه خاشعًا.

عندما انتهى من صلاته سلم على الجانبين، فانتبه أن العجوز ليست بجانبه. لقد غادرت مكانها. لعلها قررت عدم الجلوس بجانب مسلم، لكن حقيبتها ما زالت مكانها، فاستغرب وقال لنفسه:

- هكذا النساء يقضين وقتًا أطول في الحمام.

وصل القطار محطة جديدة في الطريق حيث سيتم إنزال ركاب وتحميل آخرين. بعد أن أوقف القطار في المحطة، لمح طارق شيئًا غريبًا في المحطة؛ رجال كثيرون وموزعون شكلهم غريب، لم يكن بينهم امرأة، أو طفل، أو رجل عجوز.

المرأة التي بجانبه لم تعد، هل ماتت؟!

فجأة فتح الباب، وقبل أن يخرج الركاب من بعض العربات تدافع الرجال إلى داخله، وبحركة سريعة كانوا فوق رأسه يرفعون مسدساتهم:

- ارفع يديك.
- شرطة لا تتحرك.
- اخرج من مكانك ونم على الأرض.
- اجلس.
- قف.
- أين القنبلة؟
- من معك؟
- ما اسمك؟

لم يعرف لمن يستمع، وعلى من يرد. لقد كانت الأوامر لسرعتها، وتضاربها، ولهجتها الحازمة، تثير الخوف في نفسه، فلم يعد يعرف ماذا يفعل! رفع يديه إلى الأعلى مستسلمًا ولم يتحرك من مكانه، فجذبه أحد أفراد القوة المهاجمة من مقعده وألقاه أرضًا، فيما كانت عشرات الأرجل فوق رأسه وجسمه، والمسدسات والبنادق موجهة إليه، فيما تدافع الركاب كلهم إلى الخارج عندما أعلن بالمكبرات أن القطار سيتوقف قليلاً في المحطة للتدقيق الأمني.

فتشوا ملابسه وجسمه بشكل دقيق، وبعد التأكد من أنه لا يحمل شيئًا كبلوه وجروه إلى سيارتهم يستجوبونه عن حقائبه، وملابسه، والجهة التي يعمل لحسابها.

محطات التلفزة الأمريكية تناقلت خبر إلقاء القبض على إرهابي مسلم يحاول تفجير القطار المتجه إلى (دنفر).

حوار مباشر مع المرأة العجوز التي كانت تجلس بجانبه، قالت ردًّا على سؤال لأحد الصحافيين:
– أشكر الرب أنه أنقذنا منه. كان يجلس بجانبي ويتمتم: "الله أكبر الله أكبر"، ويحرك رأسه مرة إلى الأعلى وأخرى إلى الأسفل، فشعرت أن ساعة النهاية قد اقتربت.

كان كل فترة ينظر إلى الساعة ينتظر لحظة انفجار القطار. أوه لقد أنقذنا المسيح منه. شكرًا للرب.

صور طارق الإرهابي في كل مكان. محاميه عجز عن اللقاء به حتى اليوم الثالث حيث تم إحضاره إلى (دنفر).

دهمت قوة من رجال الأمن بيته، وصادرت الحاسوب وكافة أوراقه وصوره.

عندما التقى به المحامي في اليوم الثالث، بدأت تتضح صورة التحقيق أكثر فقال له:
– طارق، آسف لما حصل معك. هؤلاء الكلاب منذ الحادي عشر من أيلول لا يعرفون ماذا يفعلون، يلاحقون الأبرياء، ويتركون المجرمين تشرح وتمرح.
على كل حال إنهم يعرضون عليك ما يلي:
أن يطلقوا سراحك مقابل تعهدك أن لا تلتقي بالصحافة، وأن لا تثر الموضوع قضائيًّا، وإلا سيقدمون لك لائحة اتهام من عشر نقاط أبرزها الانتماء لجماعة إرهابية.
– أنا؟ أتحداهم أن يثبتوا ذلك.
– أنت صادق، ولكن حتى تنتهي المحكمة وتقرر براءتك ستظل في السجن، ولا تعرف ماذا يخبئون لك من مفاجئات، فقد يفبركون لك قضية ملفقة، ويأتون بشهود يشهدون ضدك، حينها ستسجن لسنوات طويلة، وإن برأتك المحكمة فلن تكون بريئًا في أعين الناس، لكن خروجك دون محاكمة أفضل لك. أنصحك بالموافقة على عرضهم.
– وسمعتي؟! وصوري التي تملأ كل مكان؟!
– سيعلنون للصحافة أنك بريء، وأنهم لم يجدوا أي شيء معك يدينك، لكن ليس المهم أن يعلنوا، المهم عندك أن تذيعه قنوات التلفزة بالإثارة نفسها التي نشرت فيها خبر إلقاء القبض عليك.
ضحك وقال:
– هذا لن يحدث، فهذه القنوات لا يهمها براءتك، بل يهمها إدانتك.
– عنصريون صهاينة.
– هذا الموجود، ولن تغيره في يوم، فماذا تقول؟

– ما رأيك أنت؟
– قلت لك رأيي، عليك الموافقة لتتخلص من ملاحقتهم.
– هل هذه هي العدالة الأمريكية؟
– العدالة موجودة، ولكنها تحتاج من يضعها موضع التنفيذ. ما دام المسؤول عن تطبيقها أو القضاء بها فاسدًا، فلا تتوقع أن يطبقوا فيها إلا ما يتوافق مع مصالحهم ونظرتهم للأمور.

أغرب حفلة زفاف

كنت مشغولًا ذلك الأسبوع، لذلك اعتذرت من صديقي عماد في ولاية ميتشغان الأمريكية الذي دعاني، وأصر على حضوري حفلة زفاف نجل أحد معارفه، حتى أنني لكثرة إصراره على حضوري، اعتقدت أن أحد العروسين من أقاربه.
سألته مازحًا:
– لماذا تصر على حضوري زفاف شخص لا أعرفه، ولم أسمع به أصلاً؟
– لأنك ستحضر أغرب حفلة زفاف في حياتك.
– يا عماد، لم تعد تثيرني حفلات الزفاف، وفخامة قاعات الاحتفالات، والأطباق الشهية التي تقدم للمدعوين ...
قاطعني قائلاً:
– أعرف كل ذلك، ولكن صدقني أنك ستغير رأيك بعد الحفل، وتشكرني على دعوتك للحضور.

لم يترك صديقي لي سببًا للرفض، وأصر على حضوري، لأنه يحضر لي مفاجأة لم أحلم بها من قبل.

أنهيت المكالمة معه وأنا أفكر: ما سر غرابة هذا الاحتفال؟ كثرة الحضور؟ مشاركة فرق فنية راقصة كبيرة؟ توزيع الجوائز على الحضور؟ أم هي مناسبة للاختلاط بإحدى الجاليات العربية التي أخبرني صديقي أن العريس أحد أبنائها؟

تأخر إقلاع الطائرة من ولاية (منسوتا) حيث أقيم، فاتصلت بعماد أخبره كي لا يمل الانتظار، وجددت له اقتراحي أن يعفيني من الحضور، ولكنه أصر على ذلك وقال لي:
– لا تقلق، سأنتظرك في بالمطار.

– لكن الحفل سيبدأ بعد قليل.
– قلت لك سأنتظرك حتى لو وصلت في نهاية الحفل.

بعد ساعة من موعدها المحدد، أقلعت بنا الطائرة متجهة إلى ولاية (ميتشغان). كنت طوال مدة الرحلة أفكر بسر هذا الزواج الذي دعاني صديقي خصيصًا لحضوره.

كان عماد في انتظاري. تعانقنا بعد فراق طويل. يا لهذا الزمن الذي يسرق منا أعمارنا دون أن ندري! قلت له على الفور:
– تغيرت كثيرًا يا عماد، ما هذا الكرش الذي تحمله؟
ضحك وقال:
– لم تترك لنا الغربة أية وسامة. تعودنا على الأكل السريع، وقلة الحركة. لكن ماذا عنك يا صديقي؟ لقد تغيرت ملامحك كثيرًا، حتى يصعب أن أعرفك. شعر أشيب، كأنك في سن السبعين!!

بعد ثلاثين عامًا في الولايات المتحدة، ما زلنا نقول إنها غربة، في حين يقول أولادنا الذين لا تزيد أعمارهم عن عشرين عامًا إنه الوطن الذي لن يعيشوا بغيره. هكذا إذًا أصبحنا نعيش غرباء في وطن الأبناء، وأصبح الأولاد والأحفاد غرباء عن وطن الآباء.

قلت له ونحن في الطريق إلى قاعة الاحتفال:
– ألا تزال مصرًا على عدم الإفصاح عن سر هذا الاحتفال الذي دعوتني إليه؟
– كما عرفتك منذ ثلاثين سنة، بصلتك محروقة. اصبر يا عصام، فقد اقتربنا من مكان الاحتفال.
صمت لحظة ثم قال:
– ألست الذي كنت تكتب لي دائمًا في رسائلك أن المتعة في الأشياء أن نكتشفها بأنفسنا، لا أن يصفها لنا الآخرون؟ فهل تحب أن يصف لك شخص ما سواحل ماليزيا الجميلة، أم تراها أنت بنفسك؟ أليست هذه أقوالك؟

أخرسني جوابه، فلم أعد أسأله عن الاحتفال الغريب. نعم، المتعة في اكتشاف الشيء لا تضاهيها متعة أخرى، لذلك ترى الغواص يستمتع بين الأسماك باحثًا عن اللؤلؤ المرجان، بينما نحن نستمتع فقط بمشاهدة قاع البحر على شاشة التلفاز.

وصلنا الفندق الذي سيقام الاحتفال في إحدى قاعاته الكبيرة. كان واضحًا من السيارات التي تملأ الساحة خارج القاعة أن غالبية الحاضرين من رجال الأعمال والميسورين، فهذه سيارات جي إم سي، وهذه إنفنتي، وتلك

مرسيدس، ... يا الله، كلها سيارات حديثة، غالية الثمن!!

قلت لصديقي:

– يبدو أن للعريس علاقات واسعة بين الجالية هنا؟

– لا، ليست له أية علاقات، ولكن أباه صاحب كل تلك العلاقات الكبيرة التي تراها. ستتعرف إليه بعد قليل.

لم أفاجأ بالعدد الضخم للمدعوين للاحتفال، فقد حضرت في السابق احتفالات كثيرة تضم الآلاف من أبناء الجالية وأصدقائهم، ولكني فوجئت هنا بجمهور آخر لم أتعود عليه في المناسبات التي تعودت حضورها، فهذه الجالية يبدو أن لها عادات تختلف عما تعوّدنا عليه في بلادنا.

أكثر ما لفت انتباهي فساتين النساء، وروائح عطورهن التي اخترقت أنفي، فأثارتني قبل أن يثيرني جمالهن الساحر.

همست لصديقي بأول تعليق ساخر:

– يبدو أنه احتفال لاختيار ملكة جمال المهجر؟ من أين كل هذا الجمال؟!

سرنا بين الحضور باتجاه الطاولة المعدة لنا. كنت خلال سيري أتلفت يمينًا ويسارًا أمتّع نظري بورود هنا وأخرى هناك، وكنت أتساءل بيني وبين نفسي عن سر دعوة صديقي لي.

لاحظ صديقي انبهاري وقلة حيائي في التلصص على مفاتن ضيفات الحفل، فقال لي:

– هل سحرتك النساء بهذه السهولة؟

– وهل أنا صخرة المتنبي التي لا تحركها هذي المدام ولا تلك الأغاريد؟!

– حسنًا، سنسمع رأيك بعد أن نعرفك إلى العريس والعروس. انظر الناس يباركون لهما. تعال نسلم عليهما قبل الجلوس. لا تكن فضوليا، واضبط أعصابك.

وقفنا بالطابور ننتظر دورنا لكي نهنئ العروسين. كنا خلف امرأة فاتنة مع زوجها. كان واضحًا أنها أصغر منه بعشرين سنة على الأقل أو هكذا بدت. كانت تتبختر أمامنا في مشيتها كأنها في ليلة زفافها. قلت في نفسي: الحمد لله أنني لم أحضر زوجتي معي، وإلا لغارت منها، ولم تسمح لي بالتمتع بهذا الجمال الذي يقف أمامي.

اقتربنا من العروسين وأهلهما. سلم صديقي على والد العريس وعرفني إليه...

– هذا والد العريس...

– أهلاً وسهلاً، ألف مبارك.

– هذه والدة العريس السيدة...

– تشرفنا.

كانت الوالدة جميلة جدًّا وقد حسبتها في البداية العروس، وعندما عرفت أنها والدته، بدأت أبحث في عيوني عن العروس فلم أجدها.

لكزني صديقي وقال:

– أعرفك على العريس...

سلمت عليه وباركت له. فجأة قال لي صديقي:

– العروس (كرس كويست).

هنا كانت المفاجأة.

ابتسمت ابتسامة صفراء. دققت النظر في العروس وسلمت مبارِكًا، ثم ابتعدت قليلاً، فقد شعرت بالإعياء الشديد، وكدت أقذف ما في جوفي. سألت صديقي بعد أن عرفت غرابة هذا الاحتفال:

– أهذه العروس حقا؟!

– اضبط أعصابك.

– لا إله إلا الله. يا لطيف.، هل نحن في حفل زفاف أم في حفل أموات؟!

لم أتحمل الصدمة أبدًا. لعن الله صديقي، فما لي ولهذه المفاجآت التي قرفت كل شيء بسببها.

سألت عماد غاضبًا:

– أهذه هي المفاجأة؟ أهذا هو أغرب زواج تريدني أن أحضره؟

– نعم، أليس غريبًا كل الغرابة؟

– إنه مقرف جدًّا. هل هؤلاء هم أحفاد العرب؟ إني لأحسبهم أحفاد هولاكو! والله حتى هولاكو لن يقبل بهم. كل هؤلاء الضيوف جاؤوا لحضور احتفال زائف؟

– إذًا هو فعلاً احتفال غريب، أليس كذلك؟

– ليتك لم تدعني، فقد صدمت كثيرًا.

نظر إلي صديقي بجدية، قطب حاجبيه وسألني:

– ألست كاتبًا؟ ألا تكتب القصص؟ ألا تستمد قصصك وشخوصك كما تقول من الواقع؟

فكرت فيما قاله صديقي وعرفت ماذا يقصد، فسألته:

– هل تقصد أن أكتـــــ

قاطعني:

– تمامًا، هو ما أقصده.

عندما جلسنا لتناول العشاء، كان يجلس معنا على الطاولة الدائرية ستة أشخاص آخرين، سلمنا عليهم، وجلسنا صامتين حتى لا تزعجهم تعليقاتنا، وبعد فترة قصيرة سمعت أحدهم يهمس لصاحبه:

– لقد فضحنا هذا العريس، ستكون إهانة إلى جاليتنا وتاريخها العظيم.

– لماذا لم تقل ذلك لأبيه؟

سكت الأول ولم يجب. رد عليه آخر سمع ما قاله:

– لماذا تتحدثان همسًا وكأنكما خائفان؟

صمت ثم تابع:

– أنا أقول لك لماذا لم يقل لأبيه لأنه وقّع معه عقدًا عقاريًّا بقيمة مليوني دولار.

ضحك أحدهم وقال:

– عرفنا الآن سر سكوتك!!

رد شخص آخر عليهم جميعًا قائلاً:

– لا تلوموه، ترى ما الذي أحضركم كلكم اليوم؟ لماذا جئتم تباركون هذا الزواج اللعين؟ كلنا مشاركون في الجريمة.

فجأة دعا قائد الفرقة الموسيقية الجميع للمشاركة في رقصة العريس والعروس، فهب الجميع واقفين كأنهم في حفل لـــ (موزارت)، أو (بيتهوفن). وقفت مع صديقي لنشاهد العريس كيف يرقص مع عروسه.

لم يكن منظرًا غريبًا فحسب، بل كان مقرفًا لأبعد الحدود. لم أتصور يومًا أنني سأكون شاهدًا على زواج كهذا.

العريس يراقص عروسه. فجأة بدأت الموسيقى الخفيفة. ألقت العروس رأسها على كتف العريس.، صفق الجميع. فجأة لمحت صديقًا أعرفه من مدينة (شيكاغو). ذهبت إليه حيث يقف:

– فادي، كيف حالك؟

فرد علي بلهجته اللبنانية:

– لك وينك، شو جاي تعمل هون؟

– وماذا تفعل أنت هنا؟

– شغل يا عصام، شغل.

– حتى أنت لك شغل مع والد العريس؟

– طبعًا وإلا لم ترني هنا. هل أنا مجنون لأحضر حفلات من...

لم يكمل الكلمة خوفًا من أن يسمعه أحد.

صمت ثم قال:

– لكن أنت ما الذي أتى بك؟

– صديق قديم أصر أن أشاهد هذا الاحتفال الغريب.

– غريب!! أتضيع وقتك وفلوسك لتشاهد هذا الاحتفال؟

– لكن، كيف حصل ذلك؟ لماذا لم يوقف الأب هذا الاحتفال؟

– لم يستطع، ولأنه ابنه الوحيد ووريثه الوحيد، أقام له هذا الاحتفال!! لو كان ابني لدفنته حيًّا!

– معقول؟

– أكيد. أتريدني أن أقبل بابن لوطي يتزوج لوطيًّا مثله؟ تفوه على هكذا زمن.

– لماذا قبلت الجالية حضور الاحتفال؟

– أصحاب مصالح، مصالحهم أهم من مبادئهم ودينهم. الدولار هنا سيد الموقف. ألم تسمع بالمثل الأمريكي المعروف "الفلوس تتكلم".

أفعى الحديقة

في بيته الجميل الكائن في منطقة (أوكديل) الجميلة القريبة من مدينة (سانت بول) عاصمة ولاية (منسوتا)، كان كريم يغط في نوم عميق في الخامس من أيلول للعام 2005، وبجانبه زوجته التي أرهقها التعب بعد يوم حافل بالطبخ والتنظيف حيث كانت قد أعدت عشاء فاخرًا لضيوفها احتفالاً بعيد ميلاد زوجها الأربعين.

في الرابع من أيلول، دخل كريم عامه الأربعين، وصار يردد أمام ضيوفه العرب مثله القديم الذي حفظه عن جده: "بعد الأربعين الله يعين"، لكن زوجته سهام كانت تصر على أنه لا يزال شابًّا، وترفض تلك المقولة، وكانت تكرر على مسامع الجميع أن الأربعين سن الرجولة، والنضج العقلي، وعندما اختلت به بعد مغادرة الضيوف، همست في أذنه قائلة: "والفحولة، والنضوج الـــ...". فهم قصدها، وضحك طويلاً، وقرر ترجمة ذلك إلى واقع ملموس، فكان احتفالاً خاصًّا ناما بعده– كما يقول المثل– بدون هز.

الساعة الثانية صباحًا بعد منتصف الليل، الخامس من أيلول، كان الجميع يغطون في نوم عميق. أحس كريم بشيء يداعب صدره. قال لزوجته النائمة بجانبه دون أن يفتح عينيه:

– ابعدي يدك عني أريد أن أنام.

لم تسمعه زوجته، فلم ترد عليه. ما زال الشيء يتحرك على صدره، ولكنه مسطول ولا يريد أن يحرك يديه، وعندما كرر دعوته لها بأن ترفع يدها عنه ولم تستجب، مد يده على صدره ليبعد يدها عنه، فأحس بشيء غريب أطار النوم من رأسه؛ فتح عينيه ليرى ماذا بيده، فإذا بها أفعى طولها حوالي 30سم، غامقة اللون. اقشعر بدنه وتوقف شعر جسمه كله، وانتفض من الخوف، وبحركة لا إرادية ألقى بالأفعى بعيدًا وصرخ بصوت عال: أفعى، أفعى، ثم قفز فورًا عن السرير ليضيء الأنوار ويبحث عن شيء يطارد به الأفعى اللعينة.

استيقظت زوجته مرعوبة لا تدري ماذا يدور، سألته:

– ماذا هناك؟

فقال لها:

– أفعى، أفعى، انتبهي أن تلدغك.

خافت سهام وصارت تصرخ قبل أن يعود من المطبخ حاملاً المكنسة الكبيرة، وبعد ثوان هب الأولاد من نومهم في الغرفة الأخرى مرعوبين، كانوا ثلاثة، 8، 10، 12سنة.

ذهب ابنه الأكبر إلى الكراج وأحضر عصا (البيسبول) ووقف مع والده يبحث عن الأفعى ليقتلها، فيما هربت الأم إلى المطبخ لتغسل وجهها وتهدأ من روع الأولاد الآخرين.

قال كريم لابنه:

– اذهب والبس حذاء الرياضة (البوت) كي لا تلدغك.

ذهب ابنه جمال وفعل ما أمره أبوه. بعد ذلك ذهب الأب ولبس حذاءه، وبدأت مطاردة الأفعى تحت الأسرة وخلف الخزانة، إلا أنهما لم يعثرا على شيء.

فجأة رن جرس الباب، فذهبت سهام لترى من القادم في هذا الوقت المتأخر من الليل، وقبل أن تفتح سألت من خلف الباب باللغة الإنجليزية:

– (هو إز إت (من أنت؟

فرد عليها صوت:

– شرطة افتحوا الباب.

نظرت من الشباك فرأت ثلاث سيارات شرطة أمام البيت. شعرت بالراحة لقدومهم. فتحت الباب، وعلى الفور قالت لهم قبل أن يسألوها أي سؤال:

– لدينا أفعى، أرجوكم ساعدونا، كلنا مرعوبين.

سمع كريم حديث زوجته عن الأفعى، فخرج من غرفة النوم مع ابنه ليحدث الشرطة بما حصل.
سألهم أحد أفراد الشرطة:
– لماذا هذه العصا؟
– لقتلها.
– لكن الذي اتصل بنا أخبرنا أنه سمع صراخاً في البيت عندكم.
– هذه زوجتي خافت من الأفعى.
فقال لها الشرطي:
– هل لدغتك؟
– لا، ولكني خفت أن تفعل ذلك، أنا أخاف من الأفعى.
– هل هذا كل ما هناك؟
فقال كريم غاضبًا:
– وماذا أخطر من أفعى؟ لن نستطيع النوم في البيت قبل قتلها. ألا تساعدوننا؟
ضحك الشرطي وقال له:
– بالتأكيد.
دخل اثنان من الشرطة غرفة النوم فيما غادر البقية بسياراتهم عائدين.
نظر كريم إلى الشرطة وسألهم:
– هل تريدون عصًا؟
– لا.
– وكيف ستقتلونها؟
– لا تقلق، لن نقتلها.
– ماذا تقولون؟! هل ستتركونها في البيت؟
– لا، انتظر قليلاً، ها هي هناك في الزاوية.
رفع كريم المكنسة واستعد ابنه بالعصا.
فقال لهما أحد الشرطيين:
– لا تنفعلا، هذه أفعى حديقة.

اقترب الشرطي الأول منها وحملها بيده، وخرج بها إلى بهو البيت الواسع، وما أن رأت سهام والأولاد الأفعى بيد الشرطي حتى هربت مع الطفلين إلى البيت الآخر. تمالك كريم نفسه، وأراد أن يظهر رباطة جأشه أمام ابنه

والشرطة، ولكنه ظل بعيدًا عنهما.

قال للشرطي:

– يبدو أنك متدرب على التقاط الأفعى؟

فقال له الشرطي:

– هذه أفعى حديقة، لا تلدغ وغير سامة، الأفاعي في (منسوتا) والمناطق الباردة التي يكثر فيها الثلوج غير سامة إلا المتواجدة حول الأنهار، وأنتم بعيدون عن النهر.

– هل أنت متأكد مما تقول؟

– طبعًا، انظر إلى رأسها الصغير، إنها تتغذى على الورود والمزروعات بشكل خاص، حتى أن الأطفال الأمريكيين هنا يلعبون بها في غرف نومهم.

– ماذا تقول؟ والآن ماذا ستفعل بها؟

– ســأرميها خارج البيت.

– ترميها؟! لكنها ستعود. دعني أقتلها؟

– تقتلها؟! قلت لك غير سامة. اقترب والمسها؟

– أنا المسها؟ لا يمكن!

فجأة أحس بضعف أمام ابنه والشرطة، وأراد أن يظهر بمظهر الشجاع، فاقترب من الشرطي الذي كانت الأفعى تلف حول يده، وحمل الأفعى وهو يتمتم في سره:

– اللهم ارحمني من هذه الأفعى، بسم الله الرحمن الرحيم...

وبدأ يتلو آية الكرسي. تحركت الأفعى على يد كريم لثوان، ثم طلب كريم من الشرطي نقلها عن يده، فحملها الشرطي وخرج مع زميله من البيت.

هدأ الجميع وعاد الأولاد إلى غرفة نومهم، فيما جلس كريم مقابل التلفاز. قالت له سهام:

– ألا تريد أن تنام؟

– أنام؟ !بعد ما حصل؟

– لم أسمع في حياتي بأفعى غير سامة.

– ولا أنا، ما زلت اذكر وأنا صغير كيف لدغت أفعى في قريتنا في فلسطين ابن الجيران فمات قبل أن يصل المستشفى، ومنذ ذلك اليوم وأنا مرعوب من الأفاعي. بصراحة لم أشف غليلي، كان بودي أن أقتلها.

– ما دامت غير سامة فلا خوف منها على الأولاد.

– اذهبي نامي، وسألحق بك فيما بعد.

– لن أتركك وحدك، أتشرب الشاي؟

– لا مانع، قبل أن تحضري الشاي تأكدي أن الأولاد ناموا بسلام.

(تشرين ثان، 2008)

الخيانة الكبرى

تعرفت إليه من خلال الشبكة العنكبوتية. أعجبت بذكائه، وثقافته، وسعة اطلاعه، فيما انبهر هو بجمالها وحديثها العذب.

كانت رسائله إليها تغريها دائمًا بالاستمرار بمراسلته، وزادت ثقتها به أن عرفت أنه من الجزائر، من موطنها الأصلي نفسه. يعرف أهلها هناك، وقد جاء حديثًا إلى الولايات المتحدة ليقدم رسالة الدكتوراه في القانون الدولي.

كان مؤدبًا بالحديث معها، وهو ما شجعها على التواصل معه. كثيرون كانوا يراسلونها، ولكنها بعد فترة تقطع علاقتها بهم. معظم الرجال من الطراز نفسه؛ ما أن يتعرف الواحد منهم إلى فتاة حتى يبدأ بالتلميح لها أنه يحبها ومغرم بها حتى قبل أن يرى صورتها. هالة ليست من هذا النوع من النساء، فقد تعلمت خلال غربتها الطويلة عن الوطن كيف تعتمد على نفسها. هاجرت مع زوجها السابق الجزائري الأمريكي الجنسية قبل عشر سنوات، واحتدم الخلاف بينهما إلى أن طلقها.

رفضت نداء أهلها بالعودة إلى الوطن مخافة أن يحاول زوجها أن يخطف ابنتها حسب قوانين الجزائر، ففي الولايات المتحدة أمرت لها المحكمة لها بحق حضانتها لابنتهما الوحيدة. إنها امرأة مكافحة تعمل في شركة كبيرة وتعيل ابنتها.

تطورت علاقتها مع يزيد ابن بلدها الذي يدرس في جامعة (منسوتا)، الولاية نفسها التي تعيش فيها، ولكنها كانت تعلم أنها علاقة زمالة، فهو متزوج وأب لعدة أولاد، وكان يعمل في إحدى جامعات العاصمة محاضرًا في القانون الدولي قبل أن يرسل في منحة دراسية لإكمال دراسته العليا ثم العودة للوطن.

بعد شهور ليست طويلة، عرض عليها زيارتها، فرحبت به، ورأت في الزيارة فرصة لسماع أخبار الوطن منه

وأخبار الأهل بعد أن دمرت سنوات الحرب الجزائر.

كانت تعلم أن زيارته غير مقبولة في العرف الجزائري، فهي مسلمة ومن عائلة محافظة، ولكنها لم تكن من الجيل المحافظ الذي يقيد المرأة ويعدها عورة، فهي امرأة متعلمة، وخريجة جامعة، وتعمل وتعيل ابنتها، وعصامية، ومكافحة، وما يقف حائلاً بينها وبين الرذيلة سوى مبادئها والتزامها. ثم إن ضيفها أكاديمي معروف، ومتزوج ولديه عدة أولاد، ورجل مثقف وليس مثل الناس العاديين، ولو كانت تشك لحظة في نيته لما ترددت في رفض زيارته.

في اتصال هاتفي حددت له الساعة الثامنة مساء. هذا الوقت مناسب لها وله، فلديها الكثير من الأعمال، وعليها أن تعتني بابنتها، وتحضر العشاء قبل أن تستقبل أحدًا في بيتها. لماذا بيتها؟ لماذا ليس في مطعم أو مكان عام؟ البيت للضيافة الرسمية، أما المطعم فقد يأخذ صفة علاقة عشاق، أو علاقة من نوع آخر. ولماذا أدعوه إلى المطعم ما دام قد طلب أن يزورني في البيت؟ ستكون ابنتي عندي، فهي أنيسي كل ليلة. الساعة الثامنة مساءً كانت هالة قد أعدت عشاء مناسبًا لضيفها حسب الطريقة الجزائرية، وبعض الفواكه، وبدأت تنتظره.

رن جرس هاتفها النقال الساعة الثامنة. فتحت الخط:

- ألو.
- أهلاً هالة، أنا يزيد.
- هل وصلت؟
- أنا عند الباب.

نظرت إلى ساعتها، كانت الثامنة تمامًا حسب الموعد، هزت رأسها، فقد عرفت الآن أنه دقيق في مواعيده، يعجبها هذا النوع من الرجال الذين يلتزمون بمواعيدهم ويحترمون اتفاقاتهم، ويثابرون من أجل تحصيل العلم.

فتحت الباب، فإذا به أمامها. إنه يزيد؛ الدكتور لم يحصل على شهادة الدكتوراه بعد. رجل في الثلاثينيات من عمره، أبيض، حسن المظهر، شعره أسود، عيونه عسلية، حليق الذقن. رحبت به، وطلبت منه الدخول. كانت ابنتها في الداخل تنتظر معها. سلمت عليه، فربت على ظهرها وقال لها: ابنتك تشبهك.

جلس على أحد المقاعد، فيما جلست مع ابنتها على المقعد المقابل. بدأ حديثه معها عن الجزائر، والتغييرات التي حدثت فيها خلال السنوات الماضية، ودعاها إلى زيارة الوطن في أقرب فرصة.

سألته عن أهلها، فحدثها عن معرفته ببعض الأقارب وعلاقته بهم. لم يقدم لها أخبارًا غير متوقعة، فالتطورات التكنولوجية جعلت كل الأخبار في متناول اليد، ولكن قراءتها للأخبار على الشبكة أو سماعها عبر الفضائيات يختلف عن سماعها من شخص بشكل مباشر، فالأخبار الصغيرة لا تنقلها لا الفضائيات ولا مواقع الشبكة. كان الحديث شيقًا وطويلاً، وتناولا خلاله العشاء، ثم شربت معه القهوة، وعندما دقت الساعة التاسعة آن موعد نوم ابنتها، فسلمت عليهما وتوجهت إلى غرفتها للنوم.

انتهى الحديث عن الأهل والوطن، فتشعب إلى الحديث عن الحياة الخاصة، وحياتها في الولايات المتحدة، وعلاقتها بزوجها السابق. لم تكن ترى مشكلة في حديثها عن عملها وسكنها مع ابنتها، فلم تكن هالة من النوع المحافظ من النساء، بل كانت من النوع الذي يرى في تحرر المرأة خطوة على طريق التطور. كانت واثقة من نفسها قادرة على مواجهة ما يعتريها من مصاعب. أما يزيد فقد كان لبق الحديث يعرف كيف يديره بالاتجاه الذي يرغبه.

سأل بشكل واضح:

– هل تؤيدين العلاقة بين الرجل والمرأة حسب الطريقة الغربية؟

– لا، ولكن أُؤيدها حسب الثقة والاحترام المتبادل.

بعد صمت قال لها:

– ألا تفكرين بالزواج؟

– عندما يأتي رجل الأحلام.

– ماذا لو كان أمريكيًّا؟

– إن اقتنعت به ووثقت به.

– ماذا لو كان مسيحيًّا وغير مسلم؟

– ديانته غير مهمة، فهو حر فيما يقتنع به.

هز رأسه غير موافق وقال لها:

– ماذا عن الأولاد؟

فقالت له:

– وماذا يفعل الرجال بأولادهم من الأمريكيات؟

صمتت ثم أكملت:

– خصوصًا بعد أن يطلقوهن ويذهبون مع أمهاتهم؟

– لا أدري، ولكن ربما لا خيار أمامهم.

– وأنا الشيء نفسه. لماذا على المرأة التضحية أكثر من الرجل؟

حديثها شجعه على الوقوف والانتقال للجلوس بجانبها.

قال لها:

– لا أحب الفواصل بين الزملاء.

أحست أنه يدبر لشيء، ولكنها عدلت من وجهة نظرها عندما تابع حديثه بسلام.

سألها:

– ألديك أصدقاء جزائريون هنا؟

– أربعة نساء وثلاثة شبان.

هز رأسه وقال لها:

– هل النساء جميلات مثلك؟

ثم وضع يده على فخذها وبدأ يحرك يده عليها.

فجأة اهتز بدنها، ورفعت يده عنهان وقالت له بغضب:

– ما الذي تفعله؟

– لمسة بريئة، ألسنا أصدقاء؟

– نحن أصدقاء بمعنى زملاء، وليس بمعنى عشاق. ألست متزوجًا؟

– وما علاقة الزواج بذلك؟

– لو كنت طالبًا لشرحت لك، ولكنك أستاذ جامعي. انتهى لقاؤنا. إذا سمحت مع السلامة.

– أرجوك هاله افهميني، هذه حركة عفوية تعبر عن إعجابي بك.

– إعجابك بي؟ اخرج قبل أن أتصل بالشرطة. الذي منعني من الاتصال بالشرطة حفاظي على سمعة الوطن الذي يلطخ شرفه المثقفون أمثالك.

قطب يزيد حاجبيه، وخرج فورًا بعد أن اعتذر.

أقفلت الباب خلفه، وجلست على المقعد غاضبة: لمسة بريئة؟! هكذا هم الرجال كذابون لا يعرفون معنى لحرية المرأة سوى حرية انتهاك جسدها، ولا يفهمون معنى الصداقة بين الرجل والمرأة لأن المرأة لدى معظمهم حتى المثقفين منهم مجرد وليمة على السرير.

وضعت يديها على وجهها وبدأت تجهش بالبكاء. كانت تحاول أن تبكي بصمت كي لا توقظ ابنتها.

بعد نصف ساعة، ذهبت إلى الكمبيوتر، ودخلت إلى الشبكة، وبدأت تراجع بريدها الإلكتروني. حذفت رسائل يزيد كلها، ووضعت بريده ضمن العناوين التي لا تستقبلها. لم ترد على أيه رسائل لزملائها الشباب. شعرت بالإحباط مما حصل اليوم. إنها نقطة تحول في حياتها، تحتاج إلى إعادة النظر في علاقتها مع الآخرين.

(تشرين أول 2008)

الرهان الأكثر خسارة

كان (جورج آدمز) العجوز الأبيض الذي تجاوز عمره الستين عامًا يعرف بقرارة نفسه أن زوجته (بريندا)، والتي تصغره بتسع سنوات، سوف تتركه يومًا ما، لأنها بدأت في السنوات الأخيرة تتذمر منه، ومن الحياة معه على الرغم من تلك السنوات الطويلة التي عاشاها معًا، وكانت حجتها دائمًا أن جورج لم يعد يقوم بواجبه تجاهها.

هو كان له رأي آخر حيث يقول: إن عينيها فارغتان، فهي امرأة تعشق ذلك الشيء حتى الثمالة، وتعتبره كالشراب، يجب أن يمارسه الزوجان يوميًّا.

ولأنه أصبح فقيرًا من النعمتين، فقد بدأت تبحث عن غيره، وهو لم يستبعد خيانتها له، ولكنه يضطر أحيانًا للسكوت لأنه تجاوز الستين، ولا يريد أن يبقى وحده في البيت، فما أصعب أن يدب بك المرض وأنت عجوز تجاوز الستين تنادي في البيت على من يساعدك فلا تسمع سوى صوتك يعود إليك من جديد.

في أحد الأيام جلست بجانبه والسرور يملأ عينيها:

– جورج، تعرف أننا قضينا معًا وقتًا طويلاً وكانت لنا معًا قصة حب طويلة، (صمتت ثم أكملت) ولكنك تعرف حبيبي أن حياتنا أصبحت روتينًا مملاً، فلماذا لا نلجأ إلى الطلاق، وليجرب كل منا حياته بعيدًا عن الآخر، ولا مانع أن نبقى أصدقاء، أو حتى عاشقين.

– ما الذي في هذه الجمجمة يا بريندا؟! أنا أعرفك، ولا داعي لتمثلي علي دور العاشق الولهان. هل وجدت من يملأ الفراغ العاطفي الذي طالما حدثتيني عنه؟

– أوووه جورج، لا تكن مملاً، باختصار لماذا لا ننهي حياتنا الزوجية، ونقدم طلبًا للمحكمة بالرضا ودون مشاكل؟

– أية مشاكل؟

– لو ذهبنا إلى المحكمة مختلفين فقد تستغرق المحكمة سنة أو أكثر، ولكن لو كنا متفقين فلن تستغرق سوى شهر أو اثنين. أنا من جانبي لا أريد منك شيئًا، فقط أريد أن أستريح من الروتين القاتل. حياتنا الزوجية طالت أكثر من اللازم، ألا تمل مني بعد؟

فكر جورج قليلاً، وقال لها بعد أن عرف أن لا مجال لاستمرار حياته معها:

– سأوافق مضطرًا.

بعد أسبوع قدما طلبًا للمحكمة عن طريق محاميهما.

في الجلسة الأولى، سأل القاضي أسئلته الروتينية بعد أن أقسم كل من الزوجين اليمين القانونية:
– سيد جورج، هل كل المعلومات الموجودة في هذه الأوراق صحيحة، وهل كل ثروتك مسجلة هنا حسب الأصول؟
– نعم سيدي القاضي.
– سيدة آدمز، هل كل المعلومات هنا صحيحة؟ ألديك أموال لم تصرحي عنها مثل مجوهرات أو سندات؟
– لا، كل شيء في الأوراق صحيح ونحن متفقان على ذلك.
– حسنا تؤجل الجلسة حتى الثامن من حزيران/ يونيو القادم، الساعة العاشرة صباحًا للنطق بالحكم.

على الرغم من الملل الذي اعترى حياتهما الزوجية، فقد كان جورج آدمز يحرص أن يستمر زواجهما، فعلى الأقل يجد من يؤنسه في وحدته، فعلى الرغم من مساوئ زوجته التي تعود عليها، فقد مر على زواجه منها أكثر من ثلاثين عامًا.

لا أعرف مَنْ غيّرها بهذه السرعة، والأدهى تنازلها عن حصتها في البيت الذي يأويهما، وكأنها ذاهبة إلى بيت آخر أفضل منه. لا أصدق كل ما قالته، لا بد أن في الأمر سرًّا كبيرًا، ولكن كل ما يهمني الآن هو أن أبحث عمن تؤانسني بقية العمر، ربما آن لي أن أبدأ بالتردد على البارات والمطاعم لعلي أتعرف إلى إحداهن.

السابع من حزيران، غدًا موعد المحكمة. جلس جورج في بيته وحيدًا يعد الساعات للمحكمة.

روتين ممل، وعزلة رغمًا عنك، وزوجة باعتك على الرغم من عشرة العمر الطويلة. على الرغم من ذلك، سأجد أنيسًا أفضل منها. أعتقد أن (جودي) التي تعرفت إليها يوم أمس في البار أجمل منها، وعندما عزمتها للرقص لم تعترض. لقد أعادتني إلى سنوات الشباب الأولى...

فجأة قرع الباب. ذهب ليفتح، فإذا به ساعي البريد:
– أهلاً، ما الخبر؟ هل هناك طرد لنا لم يسعه الصندوق؟
– لا سيد جورج، بل هناك رسالة مسجلة للسيدة آدمز، نريد توقيعك عليها.
– حسناً، هات القلم.

وقع جورج على وصل الاستلام واستلم الرسالة، ورماها جانبًا حتى عودتها.

نظر إلى الرسالة، فأثاره اسم المرسل. فتح الرسالة ليقرأ ما فيها على الرغم من معرفته أنه يقوم بعمل غير لائق في الساعات الأخيرة. قرأها مرة ثم أعاد قراءتها. لم يصدق ما بها! هز رأسه وقال: ألهذا تريدين أن تطلقيني يا بريندا، آخ منك كم أنت أنانية!

وضع الرسالة في جيبه وتوجه فورًا إلى محاميه ورمى الرسالة أمامه.

قرأ المحامي الرسالة وقال له:

– الآن عرفت لماذا تنازلت لك عن كل شيء ليتم الطلاق بسرعة. لقد جاءت هذه الرسالة في الوقت المناسب. لا تخبرها بشيء، فقد خسرت الكثير بذلك. إلى اللقاء إلى الغد في المحكمة.

صباح الثامن من حزيران، كانت بريندا مع محاميها أول الداخلين إلى قاعة المحكمة، وجاء بعد ذلك جورج ومحاميه.

افتتحت الجلسة. سأل القاضي إن كان لدى أي منهما أي تعليق قبل النطق بالحكم. رفع محامي جورج يده وطلب من المحكمة استجواب الزوجة بريندا لأنه سيطلب إضافة إحدى الوثائق لملف القضية وقدم للقاضي نسخة من الرسالة. قرأ القاضي الرسالة ثم أعلن موافقته، بعد أن قدم نسخة منها إلى محامي بريندا.

المحامي يوجه أسئلته إلى بريندا:

– لقد قلت سيدة بريندا أنك قدمت إلى المحكمة تقريرًا بكل ثروتك، أليس كذلك؟

– نعم، كل ما قلته صحيح.

– سيدة آدمز، أريدك أن تدققي بهذه الرسالة التي سأقدم نسخة منها للقاضي الآن ليضمها إلى الملف، وقولي للقاضي ما تعليقك عليها؟

قرأت بريندا الرسالة فارتبكت وقالت:

– لن أرد على هذا السؤال.

طلب محاميها تأجيل الجلسة إلى حين دراسته الوثيقة الجديدة، ولكن القاضي رفض وأصر على استمرار الجلسة:

– سيدة آدمز، لقد كذبت على المحكمة وأنت تحت القسم، وكنت تعرفين أنك تمتلكين ثروة تقدر بستة وخمسين مليون دولار قد ربحتيها من اليانصيب (اللوتري)، وقد حاولت أن تؤجلي موعد استلامك المبلغ حتى يوم الغد لتضمني الطلاق أولاً.

– لا، لم.. آآآآ..

ثم أجهشت بالبكاء.

– عاش جورج معك أكثر من ثلاثين سنة وتريدين أن تهربي بالمال لوحدك وترميه في الطريق!

– لا، ليس القصد هكذا.

قال محاميها محتجًا:

- أعترض على ذلك.

رد القاضي:

- اعتراضك مرفوض.

طلب القاضي منها أن تجلس، وقرر تأجيل الجلسة لنصف ساعة ليخرج بالقرار النهائي.

عاد القاضي لينطق بحكمه التاريخي.

كانت مرتبكة بعض الشيء، وقالت تمتم لنفسها: ماذا عسى القاضي أن يفعل؟ سيقسم المال بيني وبينه؟ لا بأس، سأظل غنية على الرغم من ذلك. آه إنها غلطتي؛ كان علي أن أغير عنواني البريدي. لا بأس، لقد حصل ما لم أتوقعه، ولكن لمَ لا أحاول إصلاح الموقف مع جورج؟!

استدارت إلى جورج وابتسمت له، ولكنها فوجئت أنه أدار وجهه عنها غير مكترث بضحكتها الصفراء.

انتهى الوقت، القاضي يدخل إلى المحكمة. محكمة، نادى الحاجب. وقف الجميع. جلس القاضي ثم جلس الجميع. نظر إليهما، ثم بدأت بتلاوة بداية الحكم، وبعد أن انتهى من المقدمات المعروفة أعلن حكمه الذي جعلها تسقط على الأرض مغشيًّا عليها.

أولاً: الموافقة على الطلاق بين بريندا وزوجها جورج بعد زواج استمر 33 سنة وخمسة أشهر وسبعة أيام.

ثانيًا: تحرم المدعوة بريندا... من المال الذي ربحته من دائرة اليانصيب وتعتبر قانونيًّا من حق زوجها جورج، لأنها كذبت في المحكمة، وهي تحت القسم.

رفعت الجلسة.

(أيلول 2006)

السلام عليكم

في جنوب ولاية (إلنيويس) في الولايات المتحدة الأمريكية يقع سجن (ماريان) وسط منطقة مليئة بالأشجار أشبه بالغابة، تضم السجناء ذوي الجرائم الخالية من العنف، والتي يطلق عليها هناك بـــ (الجرائم البيضاء)، حيث شروط السجن المخففة، وبقاء أبواب الغرف مفتوحة طوال الليل والنهار.

كان رضوان السجين الوحيد في تلك الفترة الذي يقبع في غرفة تضم عدة سجناء معظمهم من البيض، واثنان

منهم من السود، واستطاع خلال فترة بسيطة التأقلم مع الوضع الجديد، ولكنه كان يشعر بالعنصرية تجاهه من قبل السجناء الآخرين وخصوصًا البيض الذين كان بعضهم يتهكم عليه بأنه من بلد الجمال، وأنه إرهابي، وأحيانًا كثيرة يطلقون عليه لقب بن لادن، ما يثير حفيظته.

حاول كثيرًا الابتعاد عن أولئك السجناء، ولكنه بسبب وجوده في السجن كان يلتقي معهم أحيانًا في غرفة الأكل مثلاً، أو في الساحة، أو في مكان عمله، وكلما أثارته الكلمات وشعر أنه على وشك ضرب أحدهم عاد وتراجع، فهو وحيد هناك، ولا يريد إثارة المشاكل حتى لا يتعرض لعقاب جديد.

في أحد الأيام، كان رضوان يتحدث مع زميله في غرفة رقم 4، وفجأة صرخ به سجين كان مستلقيًا قريبًا منه على سريره طالبًا منه أن يخرس. نظر رضوان إليه مستغربًا، كان سجينًا أبيض، تجاوز الخمسين من عمره، ضخم الجثة، لحيته طويلة.

سأله رضوان بغضب:

– هل توجه كلامك لي؟

– وهل يوجد غيرك يتحدث؟!

حاول رضوان أن يهدئ نفسه: "لا إله إلا الله، اللهم طول بالي يا رب".

قال له:

– سيد مكنرو، أنت رجل كبير السن، فلماذا تفعل ذلك؟

فقال له ساخرًا:

– لا أريد أن أسمع إرهابيين.

فقال له رضوان بعد أن سيطر على غضبه:

– الرجل الكبير بالسن عادة يكون ذا أخلاق، وعلى كل حال لن أرد عليك احترامًا لسنك.

وقف مكنرو غاضبًا وقال له بجلافة:

– لن ترد علي؟ من تعتقد نفسك يا راكب الجمل؟ ماذا يمكنك أن تفعل؟

– لا تستفزني يا سيد مكنرو، لقد تجاوزت حدودك؟

اقترب مكنرو من رضوان حتى وقف أمامه، قال له بصوت عال أمام كل من في الغرفة:

– أنت قطعة خراء.

ثم بصق في وجهه.

كان السجناء الآخرون بالغرفة قد شاهدوا الحديث مستغربين تصرف مكنرو لكبر سنه. ابتعد بعضهم لعلمهم أن

مشكلة ستحدث.

شعر رضوان بإهانة كبيرة، ولم يعرف خلال ثوان ماذا يفعل؛، هل يضرب رجلاً في سن والده؟ لكنه تجاوز حدوده، وأهانه بشكل متعمد دون سبب، إنه عنصري تافه.

مسح رضوان البصاق عن وجهه والدم يغلي في عروقه. اقترب منه زميله الأسود الذي كان يتحدث إليه قبل قليل وهمس في أذنه:

– رضوان، البصق في الوجه إهانة كبيرة، إن سكت على إهانته، ستصبح مضغة في أفواه السجناء، وسوف يتمادون عليك، سأقف عند الباب أراقب حركة السجان.

هز رضوان رأسه، توجه السجين الأسود ويدعى (شيف) إلى باب الغرفة. نظر إلى آخر المردوان فلم ير السجان. أعطى الإشارة لرضوان، فهجم كالأسد الثائر على مكنرو وبدأ يكيل له اللكمات. وقف مكنرو كالثور الهائج، ورد عليه. كان مكنرو مغترًا بنفسه لضخامة جثته، ولأنه كان في شبابه مصارعًا محترفًا فقد تعارك مع رضوان في معركة شرسة، كان الغلبة في النهاية لرضوان الذي كال اللكمات لمكنرو دون أن يسمح له المسك به، كأنه في حلبة ملاكمة.

سال دم مكنرو بعد إصابته بجروح فاستعان ببعض زملائه، ولكنهم رفضوا استغاثته، قال له أحدهم:

– أنت بدأتها، فعليك إنهاءها.

بعد أن سقط مكنرو على الأرض. تراجع رضوان، واكتفى بذلك، وانسحب على الفور من الغرفة متوجهًا إلى العمل، فقد حدثت المشكلة أثناء استراحة الغذاء.

في الطريق إلى قسم العمل حيث كان يعمل في المواسير قال له زميله الأسود:

– هناك خدش صغير قرب عينك، عليك تدبر الأمر وإلا تعرضت لمشكلة اليوم من السجان.

فهم رضوان المطلوب وقال له:

– أشكرك على وقوفك على جانبي. سأتابع الأمر.

بعد ساعة، كان مكنرو في الزنزانة، فقد شاهده السجان وآثار الدماء على وجهه فعرف أنه تشاجر مع أحد السجناء. سأله:

– من فعل بك هكذا؟

رد عليه:

– وقعت عن السرير.

– وقعتَ عن السرير؟ لكن إصابتك لا تدل ذلك.

كان مكنرو يعرف قوانين السجن. إن تعارك سجينان، يرسلان إلى الزنزانة، ويحولان إلى سجن آخر بعيد من السجون ذات الشروط القاسية. لم يكن يرغب الانتقال من سجن (ماريان)، فهو من أفضل السجون، لا سور للسجن، يستطيع السجين البقاء طوال الليل خارج الغرف، كما أن السجن قريب من مكان سكن زوجته، وإذا نقل إلى سجن آخر، فقد لا تستطيع زيارته لسنوات قادمة.

السجانون لم تنطل عليهم أكاذيب مكنرو، فهم يعرفون أساليب السجناء في الإنكار، وبعد ساعات عرفوا من خلال بعض الوشاة ما حصل، فتم استدعاء رضوان إلى التحقيق سأله السجان:

– ما هذا الخدش قرب عينك؟

– وقعت على الأرض في مكان العمل.

ضحك السجان، وقال له:

– وقعت؟ هل شاهدك أحد تقع على الأرض؟

– نعم، مسؤول العمل الأول السيد كولمان.

هز السجان رأسه، واتصل مع السيد كولمان:

– سيد كولمان، السجين رضوان يدعي أنه وقع في العمل أمامك اليوم، هل هذا صحيح؟

– نعم، وقع أمامي، شاهدته يقع، وجئت لأرفعه عن الأرض.

– وهل كان الجرح من ذلك الحادث؟

– لا أستطيع أن أجزم، ولكن عندما وقف كان الجرح ظاهرًا أسفل عينه. لم أنتبه إن كان موجودًا قبل ذلك.

– حسنا، شكرا لك.

لم يصدق السجان، ولكنه لم يستطع إثبات أي شيء. فحص يَدَيّ رضوان، فلم ير أي خدش عليهما. أحضر السجان الكاميرا والتقط بعض الصور لرضوان، وقال له:

– اذهب الآن. سنستدعيك لاحقًا.

بعد أيام استدعاه المسؤول عن السجن. وبعد أن كرر عليه الأسئلة نفسها وسمع الأجوبة نفسها، قال له بهدوء:

– اسمع يا رضوان. نعرف أن مكنرو أهانك وقد نال جزاءه، ولكن عليك أن تعرف أن السجن معظمه من السجناء البيض، وأنت العربي الوحيد هنا، ولا أريد أن يحدث معك شجار آخر، لذلك انتبه ألا تكررها.

هز رضوان رأسه، وقال:

– أنا أتعرض لاستفزاز دائم من قبل كثيرين يطلقون علي ألقابًا مثل: إرهابي، بن لادن، راكب الجمل...

– سأغلق الملف، وأعد الأمر منتهيًا. إن أهانك أحد فبلّغنا. انتهت المقابلة.

خرج رضوان سعيدًا بالنتيجة، فمنذ تلك الحادثة لم يعد أحد يسخر منه، ويطلق عليه الألقاب.

بعد شهر أعيد مكنرو إلى السجن من الزنزانة، ووضع في غرفة أخرى، بعد أن أنذره مسؤول السجن إن تشاجر مع أحد فسوف ينقل إلى لسجن شروط الحياة فيه قاسية.

في اليوم التالي لعودته، توجه مكنرو إلى رضوان، وعندما رآه رضوان اعتقد أنه قادم للشجار معه، فهب واقفًا، فقال له مكنرو:

– لا تقلق، أنا قادم لأعتذر إليك. أنا متأسف، أنا لا أقصد إهانتك. لقد كانت ساعة غضب. لا أريد أن أتشاجر معك، آسف مرة أخرى.

أحد السجناء همس لزميله:

– هذا الخنزير فعلها أكثر من مرة وبصق في وجه أكثر من شخص، سكتوا لكبر سنه. إنه يستحق ما جرى له.

هدأت أعصاب رضوان. فكر مليًّا، ثم قال لمكنرو:

– قبلت اعتذارك.

وعندما مد مكنرو يده لمصافحته، صافحه رضوان وعاد مكنرو إلى غرفته.

منذ ذلك اليوم صار مكنرو كلما رأى رضوان يقول له:

– السلام أليكم (السلام عليكم)

فيرد عليه رضوان مستغربًا:

– وعليكم السلام.

تعجب رضوان من ذلك: قبل شهر كان مكنرو يصفني بالإرهابي، واليوم يطرح علي السلام بكلمات لا بد أنه سمعها يومًا ما من أحد العرب في المدينة التي كان يسكن فيها. سبحان المغير ولا يتغير"!

الطريق إلى الولايات المتحدة

لم تستمع سحر لنصائح صديقاتها وأهلها، وصممت على الزواج من سامر، فهو الوحيد الذي اختاره قلبها، وكما

قيل سابقا "القلب وما يهوى".

فشلت كل محاولات والدها في إقناعها برفض سامر والقبول بابن عمها فتحي، فانصاع لطلبها حتى لا تحصل المفاجأة وتهرب مع سامر.

مرت السنوات، وأنجبت سحر أربعة أطفال؛ ولدين وابنتين (سامي، سعدي، سميرة، سمر). كانت سعيدة بزواجها، وطالما تباهت أمام أهلها وصديقاتها بأن اختيارها لسامر كان صائبًا.

بعد 12 سنة، ساءت الأوضاع الاقتصادية في فلسطين بسبب إغلاق الاحتلال الإسرائيلي لمدن الضفة الغربية بعد تفجر الانتفاضة الثانية، وأصبح سامر الذي كان يعمل كسائق سيارة تعمل على خط القدس- رام الله عاطلاً عن العمل.

مرت شهور صرف فيها سامر كل مدخراته، وأصبح يستدين من الناس ليصرف على البيت، فقرر السفر إلى الولايات المتحدة لعله يجد عملا هناك يحل ضائقته الاقتصادية. شرح الوضع لزوجته، فوافقت مكرهة بعد أن عانت من تدهور وضعهما الاقتصادي.

بعد حصوله على الفيزا، غادر سامر رام الله، بعد أن وعد زوجته بإحضارها إلى الولايات المتحدة مع الأولاد بعد أن تتيسر الأحوال، فودعته وودعه الأولاد وأهلهما.

وصل سامر إلى شيكاغو، وهناك وجد عملاً لدى أحد محلات البقالة العربية، حيث وافق صاحبها العربي على تشغيله مقابل 300 دولار نقدًا أسبوعيًّا، على أن يعمل سبعة أيام في الأسبوع من العاشرة صباحًا حتى العاشرة ليلا. كانت ساعات عمل شاقة، والأجرة متدنية مقارنة بعدد ساعات العمل في الولايات المتحدة، ولكنه قبل بذلك، فهو بدون بطاقة الإقامة ولن يجد شركة تقبل به.

سكن سامر في شقة مع أربعة من الشباب العرب الذين يعملون سرًّا مثله، وكان يتقاسم معهم أجرة الشقة، ومصاريفها الأخرى مثل الكهرباء والغاز والتلفون محاولاً توفير أكبر قدر ممكن من راتبه.

بدأ يرسل لزوجته 200 دولار شهريًّا، ويوفر الباقي. بعد فترة وعندما زادت خبرته في العمل والبلد انتقل للعمل في محل آخر يدفع 400 دولار أسبوعيًّا ويمنحه عطلة أسبوعية.

تحسنت أحواله الاقتصادية بعد شهور فأصبح يخطط للمستقبل، كم سيوفر ومتى سيكون لديه محل تجاري ومتى سيشتري سيارة وبيتًا و...

بعد شهور من العمل المتواصل، وافق على دعوات أصدقائه في الشقة بالسهر معهم في نهاية الأسبوع، فأخذوه إلى أحد النوادي الليلية التي تضج بالنساء من كل الأنواع. بهر سامر بذلك، وخلال دقائق كان يرقص مع إحداهن. تكررت سهراته حتى أصبح يذهب لوحده بعيدًا عن عيون أصدقائه، ولم يمض وقت طويل حتى اتفق سامر مع إحدى الفتيات الأمريكيات على الزواج، فاتصل يقنع زوجته سحر على الطلاق (صوريًّا) ليستطيع الزواج من (جولي) لأن الطريق إلى الحصول على بطاقة الإقامة لا يتم إلا بالزواج من جولي، وبعد ذلك يمكنه إحضارهم إلى الولايات المتحدة.

عارضت سحر في البداية، ولم تصدق أن الطريق إلى أمريكا لا تكون إلا عبر أحضان جولي!

– سامر ستزوج عليّ؟

لكنها وافقت عندما طمأنها أن زواجه من جولي على الورق فقط، فوافقت وأرسلت له وثيقة الطلاق.

تزوج سامر من جولي، وانتقل على السكن معها في شقتها بعد أن ودع أصدقاءه. كانت أولى ثمار زواجه منها حصوله على إذن بالعمل والموافقة على منحه بطاقة الإقامة، فانتقل للعمل في شركة نقليات، وتحسنت أحواله الاقتصادية.

لم تكن سحر تعلم أن زوجها سامر يسكن مع جولي، فقد كانت لا تعرف سوى رقم هاتفه الخلوي الذي كان بجانبه دائمًا، وعندما اتصلت به في إحدى المرات وردت عليها جولي، جن جنونها وسألته:

– هل أنت عند زوجتك الجديدة؟

فيجيبها:

– لا تقلقي يا سحر، أنا أتابع معها بعض الأوراق، فالقانون الآن ليس كما السابق، فكل من يتزوج أمريكية عليه أن يبقى معها سنتين قبل حصوله على بطاقة الإقامة الدائمة، وخلال هذين العامين إن طلقها أو هي تركته تستطيع أن تسحب منه بطاقة الإقامة المؤقتة.

– عامان؟

– ماذا أفعل؟! عليك الصبر يا سحر من أجل الأولاد والمستقبل.

جولي الأمريكية ليست مثل سحر الفلسطينية، فقد كانت تصر على السهر كل أسبوع، وأحيانًا تذهب معه إلى أحد القوارب الكبيرة (سفينة) في بحيرة ميتشغان والتي تضم كازينو للقمار. كانت البداية اللعب على الآلات بربع

دولار، كان يتسلى معها ويخسر خمسين دولارًا ليعود آخر الليل مسطولاً من الخمر الذي بدأ يتعود عليه.

السهر في الكازينوهات مع جولي له سحر خاص لم يستطع سامر أن يقاومه خصوصًا بعد أن كسب بعض المال، فبدأ يشارك في لعب (البلاك جاك) ثم (الروليت)، ثم (البوكر)، وليته لم يفعل، فقد صرف في شهور قليلة كل ما وفره، وأصبح عاجزًا عن إرسال المبلغ الذي يرسله إلى سحر كل أسبوع، وكلما توفر معه مبلغ بسيط عاد إلى طاولة القمار، وعندما سألته سحر عن الفلوس، اضطر إلى الكذب عليها بأنه فصل من العمل، وطالبها أن تجد عملاً في رام الله، أو تستدين من أهلها.

جن جنونها فقالت له:

– لماذا لا تعود إذًا؟

– هل جننت؟! اصبري، سأجد عملاً قريبًا.

لم يعد سامر يتصل بها كل عدة أيام كما كان سابقًا، وزاد إدمانه على القمار، وأنجبت له جولي ولدًا سمّته مايكل. بعدها طلب منها أن تتوقف عن الإنجاب حتى تتحسن أحواله.

استدانت سحر بعض المال من بعض أقاربها الذين توهموا أن سامر سيرسل لها الفلوس قريبًا من الولايات المتحد، ولكنه لم يرسل لها سوى مبلغ صغير يكاد يكفيها مصاريفها، فاضطرت مجبرة على العمل، وأرسلت ابنها سامي للعمل لدى أحد كراجات السيارات بعد أن ترك المدرسة، وقد كان عمره 15 سنة.

كل مرة كان سامر يتصل، كانت تسأله سؤالها المعهود؟

– متى سنحضر إلى طرفك؟

كان يقول لها:

– بعد الحصول على بطاقة الإقامة الدائمة.

ولكن بعد حصوله على بطاقة الإقامة الدائمة أصبح يقول لها بأنه سيسحبهم بعد حصوله على الجنسية الأمريكية.

– حبيبتي، إذا طلقتها الآن سأحصل على الجنسية الأمريكية بعد 3 سنوات من الآن، وإذا بقيت متزوجا منها سأحصل عليها بعد سنة ونصف من الآن. لذلك اصبري قليلاً، فالجنسية مكسب لنا، والأهم يا سحر عندما أقدم أوراقكم الآن إلى دائرة المهاجرة فقد يستغرق ذلك سنتين أو أكثر، ولكن عندما أقدم للمهاجرة أوراقكم وأنا أحمل الجنسية الأمريكية سيتم ذلك بوقت أسرع، ربما شهران.

سكتت سحر فلم يكن لديها خيار آخر. كل الخيارات في وجهها أغلقت، وتمنت لو لم يسافر زوجها إلى أمريكا: ليته يعود، ليته لم يسافر. ماذا حصلنا من أمريكا سوى الوعود الكاذبة؟

مرت السنوات، وحصل سامر على الجنسية الأمريكية، وقرر التخلص من زوجته جولي التي حكمت المحكمة لها بحضانة الولد، وألزمت سامر أن يدفع لها 800 دولار شهريًّا بدل حضانة ابنه مايكل.

بعد حوالي 6 سنوات من دخوله أمريكا، قرر زيارة رام الله ليعقد قرانه من جديد على سحر، ويقدم لها الأوراق اللازمة لإحضارهم معه إلى أمريكا "بلد السمن والعسل".

فرح الأولاد بعودة والدهم بعد هذا الغياب الطويل، وكانوا سعداء بالهدايا التي حملها لهم، وشعرت سحر بالسعادة بعد أن استردت زوجها وعاد إلى أحضانها.

قدّم سامر كافة الوثائق الرسمية للهجرة إلى القنصلية الأمريكية لزوجته سحر وجميع أولاده وبناته، ثم عاد إلى الولايات المتحدة ليتابع أعماله حتى تنتهي الإجراءات الروتينية وتستدعي القنصلية العائلة لمنحها فيزا الهجرة التي ينشدونها. أخيرًا جاءت الموافقة. فرحت سحر والأولاد فقد حصلوا على الفيزا. سيهاجرون جميعًا إلى الولايات المتحدة.

الناس تفرح بالعودة إلى الوطن، ولكن بعضهم يكون أكثر فرحًا بالهجرة منه. ما أقسى أن يفرح الناس بالهجرة من أوطانهم! إنهم يتنكرون لترابه الذي احتضنهم، وإنهم كمن يتنكر لأبيه وأمه وطفولته وجيرانه.

حضّرت سحر الحقائب واشترت التذاكر وترك سامي العمل في الكراج وقد أصبح حِرَفيًّا في تصليح السيارات، ووعده أبوه أن يفتح له محلاً لتصليح السيارات هناك:

– ستكون غنيًّا، فتصلح السيارات في أمريكا يدرّ مالاً كثيرًا.

قبل هجرتهم بأسبوع اقتحمت القوات الإسرائيلية رام الله، وبعد عمليات تخريب واسعة اعتقلوا عددًا من الشبان كان سامي أحدهم. فاتصلت سحر تبكي لزوجها:

– الحق يا سامر، اعتقلوا سامي، سامي في السجن.

غضب سامر، وسألها:

– لماذا في السجن؟

– يقولون إنه مع المقاومة.

– مع المقاومة؟ وماذا يفعل مع المقاومة؟ ما له وللمقاومة!

سألته:

– ألن تحضر لمتابعة قضيته؟

– وماذا سأفعل أكثر من توكيل محام؟ وكلي أحد المحامين وسأرسل لك بعض المال، لا بد أن يطلقوا سراحه بعد فترة.

أجلت سحر والأولاد سفرهم، ولكن سامي ظل في السجن، فقد حكمت المحكمة عليه بالسجن خمس عشرة سنة. لم يصدق سامر.

– كل هذا منك يا سحر، لو ربيته بشكل جيد لما التحق بهم.

– أنا يا سامر؟ أنا التي كنت أعمل وأربي الأولاد وأنت مع جولي.

– لقد كنت أتابع مستقبلنا لأحصل على الجنسية الأمريكية لكم جميعًا.

– وماذا ستفعل الآن؟ ألن تعود؟

– يا سحر، هنا مستقبلنا والحياة أفضل وأكثر أمانًا. لو كان سامي هنا لما حصل له ما حصل.

– وهل سنتركه وحده بالسجن؟

– يا سحر نحن لم نتركه. سنزوره كل سنة مرة، إنها 15 سنة، ماذا سنفعل؟ هل نضيع مستقبل العائلة؟! أكيد سيتفهم الوضع فهو شاب، ليتحمل نتائج غلطه.

وافقت سحر على مضض، فبقدر حبها لابنها وحرصها أن تزوره، فهي لا تريد لسامر أن يبحث عن جولي جديدة. ما الذي غير سامر بهذا الشكل؟ كان يقود المظاهرات أيام شبابه، وهو الآن يلوم ابنه لأنه التحق بالمقاومة "ليتحمل نتائج غلطه"!

بعد شهر كانت سحر والأولاد في طريقهم إلى الولايات المتحدة بعد أن ودعوا سامي في السجن. كانوا متلهفين إلى رؤية بلد الكابوي، والجنة الموعودة، فيما كان سامي حزينًا في سجنه على عائلته التي تركته وحيدًا خلف القضبان. الاحتلال يعاقب المناضلين بأسرهم، والأهل يعاقبونهم بهجرتهم.

بعد وصولهم بأشهر اشترى سامر محلاً صغيرًا (بقالة) وشغل معه أولاده وزوجته لتوفير أجور العمال، وكان يقسم العمل بينهم؛ الزوجة في الصباح، والأولاد بعد الظهر بعد عودتهم من المدرسة. كانت سميرة التي تجاوزت ست عشرة سنة تعمل في محل والدها كل يوم سبت، حيث علّمها كيف تحاسب الزبائن وتستخدم الآلات بما فيها (الكاش رجستر) التي تدخل عليها أسعار الحاجيات.

في أحد الأيام بينما كان أبوها مشغولاً بالخلف يعبئ الثلاجات بالكولا والبيبسي، دخل إلى المحل شخص ملثم وجه مسدسه بسرعة إليها وصرخ بها:

– لا تتحركي، (سْتِكْ أَب) تقشيط، افتحي الجرار بسرعة وضعي كل الفلوس في كيس قبل أن أفجر رأسك.
ارتعبت سميرة التي رأت المسدس على بعد مسافة قصيرة منها. حاولت فتح (الكاش رجستر)، ولكنها لشدة رعبها ضغطت على الزر الخطأ فأحدثت صوتًا، فأطلق رصاصة تحذيرية.
– أسرعي ولا تضيعي الوقت وإلا سأقتلك.

سمع أبوها الصراخ فخرج يرى ما المشكلة، أحس الملثم خطوات من الخلف فاعتقد أنها طلبت النجدة من أحد، خاف أن يطلق أحد النار عليه، فأطلق على الفور النار على رأسها، ثم استدار وأطلق النار على والدها، ثم حمل (الكاش رجستر) كله بعد أن سحب السلك الذي يربطها بالكهرباء، وخرج إلى سيارة تنتظره في الخارج، وغادر المحل وسط وجوم بعض الزبائن الذين شاهدوا الحادث من الخارج.

لحظات قصيرة كانت الشرطة تتابع الحادث، ونقلت سيارة الإسعاف المصابين إلى المستشفى، توفيت سميرة على الفور، فيما ظل الأب في غرفة الإنعاش حتى شهر كامل ثم أُعلن عن وفاته.

صعقت سحر لموت ابنتها وموت زوجها. جاءت إلى أمريكا "بلد السمن والعسل"، فلم تجنِ سمنًا ولا عسلاً. ليتها ظلت في فلسطين. ليتها ظلت بجانب سامي. تركوه وحيدًا من أجل أمريكا. كانت أمريكا البريق الذي دفعهم للهجرة من أرض الوطن.
احتارت سحر، ماذا ستفعل الآن؟
هل تعود إلى رام الله وتترك قبري زوجها وابنتها هناك؟ أم تبقى في أمريكا وتترك سامي وحده خلف القضبان؟
لو عادت ماذا ستفعل هناك؟ ماذا ستشتغل؟ على الأقل هنا سيعطونها معاشًا يعيل الأسرة، ستحصل على تأمين صحي، وربما تستطيع العمل لاحقًا. وأهل رام الله كثيرون.
سألت سعدي وسمر ما رأيكما؟
قال لها سعدي:
– أريد العودة إلى رام الله فقد اشتقت إلى سامي.
أما سمر فقالت لها:
– أريد البقاء في أمريكا بجانب قبر والدي وأختي.

احتارت سحر ماذا تختار. كانت تعتقد أن الطريق إلى أمريكا سهلة جدًا، ولكنها اكتشفت في النهاية أنها طريق مليئة بالمنحدرات والمطبات التي لا يعرفها إلا الذين ساروا بها من قبل.

العنكبوت

الطقس حار جدًّا، إنه صيف ولاية (كانزاس) الأمريكية التي هي أقرب إلى الجنوب منها إلى الشمال، كل بيت لديه مكيفات تبريد لكي يستطيع تحمل درجة الحرارة العالية، إلا نزلاء سجن (ليفنوورث) الواقع على بعد خمسين ميلاً من المدينة كانزاس الواقعة على الحدود بين(كانزاس وولاية ميسوري، فهي مدينة مشتركة أو مدينتان باسم واحد إحداهما تابعة إلى ولاية ميسوري والثانية في الشارع المقابل تابعة لولاية كانزاس.

في سجن ليفنوورث الفدرالي يعاني السجناء من شدة الحرارة، والتي تكون أكثر ارتفاعًا في الطابق الثاني منه لأن سقفه من الزينكو والزفتة، فقد تتجاوز درجة الحرارة 55 مئوية، خلال أشهر الصيف، يكون بعضهم بملابسهم الداخلية فقط، بل يذهب بعضهم إلى حد النوم بالسروال الداخلي وحده.

حرارة الطقس مشكلة، فما بالك بحرارة السجن، ووجود المشاحنات اليومية، والبعد عن الأهل، وسوء التغذية، كلها تزيد من حرارة السجين، فيكون بين الموت والحياة، غير قادر على استيعاب أي شيء.

كان (جاك) مستلقيًا على سريره السفلي لا يستطيع الحركة بسبب حرارة الطقس على الرغم من وجود 14 مروحة كبيرة الحجم في الغرفة، أصواتها مزعجة أكثر من حرارة الطقس نفسه.

في الغرفة 64 سجينًا، بعضهم خارج الغرفة لأن الطقس أقل سخونة، ولكن جاك اختار أن يستلقي على سريره يراقب السجناء الداخلين والخارجين. فجأة لمح سربًا من الحشرات والصراصير الزاحفة تخرج كسرب طويل من تحت السرير. نظر يراقب حركتها فلمح عنكبوتًا يطاردها. عنكبوت كبير أسود، أثار انتباهه. لطالما حذرت إدارة السجن السجناء من العنكبوت، إنه قارص ويؤدي إلى إتلاف الجلد في المكان الذي يقرص فيه. أراد أن يقتله، ولكنه تكاسل، فالطقس حار جدًّا، ورأسه أثقل من جسمه.

لحظات، هب من سريره بسرعة كأنه تحول من رجل شبه ميت إلى رجل دبت فيه الحياة. بحث بجانبه عن مرتبان القهوة البلاستيكي الفارغ الذي يستخدمه لشرب القهوة، فتحه ولحق بالعنكبوت، فوضعه داخل المرتبان وأغلق عليه ثم أخفاه بين أغراضه وعاد إلى سريره.

في الليل كان السجناء نائمين أو يحاولون النوم فالحرارة المرتفعة تمنعهم على الرغم من أن بعضهم لديه مروحة صغيرة يشتريها من (كانتين) السجن ويسلطها على جسمه أثناء النوم على الرغم مما لذلك من أضرار.

كان جاك مستيقظًا يخطط لأمر ما.

الساعة الثالثة والنصف صباحًا استيقظ حسام، وهو سجين عربي مسلم لصلاة الفجر. الغرفة معتمة ليس فيها سوى بعض الضوء القادم من خارج الغرفة من كشافات السجن نفسه.

بعد أن توضأ حسام وهيأ سجادته للصلاة، كان جاك قد حضر المرتبان الذي يخبئ به العنكبوت. انتظر جاك حتى سجد حسام في الركعة الأولى، وما أن وضع جبينه على الأرض حتى اقترب جاك بسرعة ورمى العنكبوت أمام رأس حسام.

– سبحان ربي الأعلى، سبحان ربي الأعلى، سبحان ربي الأعلى، الله أكبر.

كان العنكبوت يسير من اتجاه إلى آخر، لا يدري أين يتجه. لم ينتبه حسام إليه، فوقف يصلي الركعة الثانية، فيما كان جاك يتابع العنكبوت الذي خذله وقرر الهرب تحت السرير ثم اختفى من الساحة.

أنهى حسام صلاته وعاد إلى النوم، فيما غط جاك في نوم عميق فقد كان مستيقظًا طوال الليل. في الصباح استيقظ حسام ليحضر نفسه إلى العمل.

الساعة السادسة صباحًا.

استيقظ جاك فجأة، فقد شعر أن شيئًا يسير على فخده الأيمن، وعندما حرك نفسه كان العنكبوت قد شد إبرته فيه، فصرخ من الألم. اقترب حسام منه بسرعة وقد لاحظ العنكبوت على فخده فرفعه بسرعة بالبشكير الذي كان بيده ثم ضغط عليه بحذائه فقتله. تقدم من جاك وساعده في الوقوف ونقله إلى العيادة للعلاج الطارئ. بعد ساعة كان جاك قد استعاد قوته بعد أن تعرض للإسعافات اللازمة. نظر إلى حسام الذي يكرهه لأنه مسلم، وقال له:

– شكرًا حسام.

صمت لحظة ثم تابع:

– لأول مرة أكون فيها مدينًا لمسلم.

فقال له حسام:

– لا تقلق، لن نطالبك برد الجميل.

سكت، وبعد أن تركه حسام ليذهب للعمل، بدأ يتمتم: يبدو أنني يجب أن أغير رأيي في هؤلاء الإرهابيين.

(تشرين أول، 2008)

الهجرة إلى الجنة

كان مجبرًا أن يسهر مع زملائه في البيت حتى ساعة متأخرة من الليل، على الرغم من أن عمله صباح اليوم التالي (السبت) كان مبكرًا، وكان عليه أن يكون هناك قبل موعد العمل ليثبت لصاحبه أنه يحترم عمله، خصوصًا وأنه لم يمر عليه سوى يوم خمسة أيام في العمل الجديد.

استأذن منهم فقد أنهكه النعاس، وذهب إلى النوم، ولكن هيهات أن ينام، فقد كانت أصواتهم وصرخاتهم ترن في أذنيه حتى الصباح الباكر. كان يحاول النوم بين لحظات الهدوء القليلة، وأحيانًا كان يقوده تفكيره للأمام فيحلم أنه يطير بجناحين كبيرين. كيف لا يطير وهو الآن في جنة أمريكا، يعمل في غسيل الأطباق (الصحون) براتب شهري قدره 800 دولار شهريًّا، بعد أن ظل في وطنه سنوات دون أن يجد عملاً.

هو الآن في أمريكا، ولم يعد يصحو على أصوات الدبابات كما كان في رام الله، ولكنه يصحو على أصوات زملائه في الشقة، إنهم ثلاثة شبان عرب، اثنان منهم من فلسطين أحدهما من قرية بيت دقّو ويدعى سائد، وآخر من قضاء نابلس ويدعى زياد، أما الثالث فكان سوريا من الحسكة ويدعى أمين. استقبلوه فور وصوله شيكاغو وساعدوه في الحصول على عمل، ثم قالوا له:

– سنسامحك في الشهر الأول حتى تجدَ عملاً، وبعد ذلك ستدفع مثلنا. كانوا فعلاً شبابًا طيبين.

استيقظ فإذا الساعة الثامنة: يا الله لقد تأخرت على الشغل، سيفصلونني الآن.

تحرك بسرعة. لبس ملابسه، وغسل وجهه، ثم نزل مسرعًا إلى العمل.

ما إن نزل عن الدرج حتى رن جرس الهاتف في البيت، كان على الخط الثاني أبوه يريد أن يطمئن عليه. لم يرفع السماعة أحد، فالجميع نيام، ظل الهاتف يرن حتى لفترة طويلة حتى رفع السماعة أمين متذمرًا:

– ألو، مَن؟

– مرحبا يا ابني، أنا أبو فريد، هل أستطيع التحدث مع فريد؟

– فريد ذهب إلى الشغل.

– متى سيعود، أنا أبوه، أحب أن أسمع صوته.

– سيعود في المساء، وسأبلغه أنك اتصلت عندما يعود.

وصل فريد الشارع العام واقترب من موقف الحافلات الذي كان على الجهة المقابلة للشارع فشاهد الحافلة تصل المحطة، ولم يكن بمقدوره قطع الشارع لكثرة السيارات، ولأن إشارة مرور السيارات بالاتجاه المحدد كانت خضراء، فحرك يده للسائق لعله يتوقف قليلاً فوافق، ولكن كثرة السيارات منعته من الوصول، فبدأ السائق يتحرك معلنًا نفاد صبره.

خشي فريد أن يتركه السائق فيتأخر أكثر، فالحافلة التي تليها ستأتي بعد ساعة. ركض ليقطع الشارع بسرعة ليلحق بالحافلة أن تغادر، ولكن فجأة ضربته سيارة قادمة من الاتجاه الآخر تسير بسرعة جنونية جعلته بين الحياة والموت.

توقف السير، وتحركت الحافلة مغادرة، وتجمع بعض المارة، وبعد دقائق كانت سيارتا الإسعاف والشرطة تملآن المكانز بحثوا في جيبه عن أية إشارة، أو بطاقة تحمل اسمه، أو عنوانه فلم يجدوا سوى ستة دولارات، وخمسة وستين سنتًا. سألوه وهو في الطريق إلى المستشفى عن اسمه وعنوانه، وبالكاد استطاعوا تسجيل الاسم والعنوان.

كان حريصًا على عدم التأخر عن العمل، فقد جاهد طويلاً قبل أن يحصل عليه. أكثر من عامين كاملين وهو يبحث عن عمل في رام الله قبل أن يسافر إلى الولايات المتحدة. لم يترك بابًا في رام الله إلا طرقه، حتى عرفته كل الشركات والمحلات التجارية. عزاؤه الوحيد كان في أنه ليس الوحيد الذي يسكن في حي البطالة، فهو أكثر الأحياء ازدحامًا بالسكان.

فكر أخيرًا في إيجاد عمل في القدس، ولكن الجيش الإسرائيلي لم يترك منفذًا إليها إلا وسده، وتحولت نقاط التفتيش العسكرية القريبة من الرام إلى نقطة حدود دولية كتلك التي بين مصر وإسرائيل، أو حتى بين المكسيك وجارتها الولايات المتحدة. حاولوا تقسيم الوطن الواحد أكثر من مرة. نجحوا في رسم الحدود،ولكن لم ينجحوا في تقسيم الوطن في أذهان الناس.

جرب أكثر من مرة اللجوء إلى التهريب ودخول القدس عبر الجبال، وهي مهمة لا يقدم عليها إلا من كان قد وضع روحه على كفيه متحدًّا ما سيعترضه من مخاطر. نجح أخيرا في الوصول إلى الخط الرئيس في بيت حنينا بعد مشي ساعات طويلة عبر الجبال مع أن المسافة لم تكن تزيد في الحافلة عن خمس دقائق على أكثر تقدير.
كان يلهث من التعب، بدأ يتمتم لنفسه:
الحمد لله رب العالمين، وأخيرًا وصلت، يا سبحان الله! أصبح التنقل في أرض الوطن يحتاج إلى تصريح! لم نعد نعرف على وجه الدقة أي المناطق يسمح لنا بالتجوال فيها وأي المناطق يحظر علينا الاقتراب منها، ولم أعد

أعرف إن كنا سجناء أم رهائن، أم تحت الوصاية، أم خليطا من هذا وذاك؟ لعن الله الاحتلال وجنوده، متى سيريحنا الله منهم؟

صمت ثم تابع:

لقد كانت مغامرة رهيبة، ولكنها جميلة على الرغم من كل شيء، فلأول مرة أشعر بمتعة المغامرة، ربما لو جئت تلك الجبال في وقت عادي دون ملاحقات الجيش لما شعرت بأية متعة. يبدو أنني لا أشعر بمتعة الأشياء إلا عندما أقتحم مصاعبها وأتحمل في سبيلها الأهوال. هل هذا هو قدرنا نحن الشعب الفلسطيني أن نتحمل كل ذلك؟

الذين يشاركون في سباق الخيل وسباق السيارات يعرضون أنفسهم للمخاطر أيضًا، وبعضهم يموت من أجل الفوز. الفرق الوحيد بيننا وبينهم هو أن المشاركين عندنا في هذه المسابقة من كل الأعمار. إنه فعلاً سباق بيننا وبين الجيش الإسرائيلي، فإما أن نفوز ونصل القدس وإما أن نخسر السباق فنسحب للمعتقل. السباق عندنا مفتوح. الاحتلال أعلن بدايته، ولكنه بالتأكيد لا يعرف كيف ستكون النهاية.

آخ يا زمن.. أصبح الباحث عن عمل كالجندي على خط الجبهة الأمامي، فقد يعود سالمًا وربما لا يعود أبدًا.

انتظر فريد قليلاً حتى مرت سيارة أجرة (سيارة سرفيس تنقل الركاب مثل الحافلة)، فأشار إلى السائق الذي أوقف السيارة، وقبل أن يصعد إلى السيارة سأله:

– هل معك بطاقة هوية من القدس؟

– لا أنا من رام الله.

فتركه وتابع السير.

لعنة الله عليكم، هل صرتم حراسًا لليهود؟ آخ منكم يا أهل القدس.. نحن ندفع الثمن وأنتم هنا ولا على بالكم. تفوه عليكم.

لم يتوقع فريد أن يصبح سائقو السيارات والحافلات عمالاً أمنيين لليهود! عامان كاملان لم يدخل فريد القدس، ولم يعرف التغييرات التي حصلت فيها.

فجأة خطرت له فكرة، بعد قليل كانت سيارة أجرة (سرفيس) أخرى تقترب منه، فرفع يده، فتوقفت، سأله السائق:

– من القدس؟

– نعم أنا من القدس.

بعد أن جلس داخل السيارة قال له السائق:

– هل لي أن أرى بطاقة الهوية إذا سمحت؟

– يا رجل هل تعتقد أنني أكذب عليك؟ اتق الله. قلت لك من القدس.

سكت السائق. لم يكن يعلم أن فريدًا يكذب عليه. وأنه مثّل الدور جيدًا، فقد كانت تعبيرات وجهه ونبرة صوته توحي أنه صادق! كيف حافظ على رباطة جأشه؟ ربما الفقر والبطالة والبحث عن عمل تلك المدة الطويلة!!

بعد عدة دقائق عندما اقترب السائق من شعفاط، أوقفته سيارة شرطة إسرائيلية فجائية للتفتيش. كانوا يصوبون البنادق نحو الركاب وكأنهم في هجوم انتحاري، ومثل تلك السيارات المتنقلة للتفتيش كثيرة، بحيث يصعب أن تجد منطقة لا تتحرك فيها الشرطة الإسرائيلية بشكل متواصل.

توقف السائق، وقال للركاب قبل وصول الشرطي اليهودي:

– حضروا بطاقات هوياتكم يا شباب حتى لا نتأخر.

وصل الشرطي اليهودي، كان أسود اللون يبدو أنه من أثيوبيا جاء ليصارع أهلها على وطنهم.

نظر إليهم باستهتار، وقال بلغة عبرية ضعيفة:

– تعودات زهوت (بطاقة الهوية).

قدم له كل منهم بطاقته، أما فريد فلم يحرك ساكنًا فدفعه جاره، ولكنه تجاهل ذلك.

نظر الشرطي أخيرا إلى فريد وسأله:

– أين بطاقة الهوية يا خمار (حمار) ؟

قدم فريد البطاقة البرتقالية اللون (بطاقة هوية سكان الضفة لونها برتقالي بخلاف بطاقة أهل القدس العرب الزرقاء).

سأله بعد أن شاهد لون بطاقته:

– هل معك تصريح بالدخول؟!

فأجابه:

– نعم.

– أين هو؟

– ضاع.

طلب منه النزول من السيارة بعد أن سدد بندقيته إليه، وقال للسائق أن ينزل هو وكل الركاب.

نظر الشرطي الأسود القصير إلى فريد بتعال وغرور وقال له:

– ارفع ثيابك.

فرفعها، ثم رفع يديه عاليًا.

– اخلع بنطلونك.

فخلعه ولم يبق إلا السروال الداخلي.

– أدر ظهرك.

فأداره.

– ارفع يديك للأعلى.

– افتح بين رجليك.

ففعل.

ثم اقترب منه شرطي آخر وشد وثاقه قبل أن يهجم عليه لكمًا وضربًا بعقب البندقية، ثم سأله بصراخ:

– لماذا جئت إلى هنا يا ابن الزانية؟

– جئت أبحث عن عمل.

– جئت تبحث عن عمل أم لتفجر نفسك؟

– جئت أبحث عمل وكما ترى ليس عندي متفجرات.

– حسنا، إلى من ستذهب في القدس؟

– لا أعرف، سأبحث عن عمل عند كل الناس.

– حسنا، سنرى.

ثم استدار إلى السائق وسأله:

– لماذا أحضرته في سيارتك؟ ألا تعرف أنه ممنوع؟

– سألته من أين فقال من القدس.

استدار الشرطي الأثيوبي الإسرائيلي إلى فريد وصرخ به:

– تكذب على السائق يا حبلان (مخرب)؟!

طلب الشرطي ومساعدوه من الركاب استخدام سيارة أخرى للانتقال إلى القدس، واعتقلوا فريدًا مع سائق السيارة، وحجزوا سيارته بعد أن طلبوا نقلها إلى قسم الشرطة (المسكوبية).

نظر السائق إلى فريد بحنق وقال له:

– أرأيت؟ لقد قلت لي إنك من القدس.

ثم أكمل قائلاً:

– لماذا كل هذا ؟ الآن سيحكم علي بغرامة تقدر بثمانية آلاف شاقل غير السجن؟ لماذا؟ ماذا فعلت لك يا عزيزي؟ أنا أعمل 15 ساعة في االيوم حتى أوفر طوال الشهر 3000 شاقل (700 دولار)، وأنت تريدني أن أدفع الآن ثمانية؟

رد عليه فريد بهدوء:

– لماذا أنا؟ ما ذنبي؟ أنا مثلك جئت أبحث عن عمل؟ منذ عامين كاملين بدون عمل؟ أية جريمة أرتكب وكيف

أدافع عن حقي؟ هل فعلاً أنا المجرم؟ أليس الاحتلال هو السبب؟ نحن في رام الله محاصرون منذ سنوات، أنتم على الأقل تتنقلون بسهولة. تجدون عملاً حتى في مصانعهم.

كان السجن يعج بالسجناء ومنهم بعض عمال الضفة الذين ألقي القبض عليهم بدون تصاريح رسمية.

تعرف فريد في سجن المسكوبية في القدس إلى عامل كبير السن يعمل في مصنع إسرائيلي. سأله:
– كيف أحضروك إلى هنا؟
– كنت أعمل في مصنع إسرائيلي في بيت شيمش ولا أعود إلى رام الله إلا مرة كل شهر، وبصعوبة بالغة لأنني لا أحمل تصريحًا رسميًّا وصاحب العمل اليهودي يتهرب من إصدار تصاريح لنا حتى لا يدفع عنا الضرائب. قبل أيام غضب اليهودي لأن صديقًا له في الجيش قتل على أيدي رجال المقاومة، فأحضر لنا الجيش، وقال لهم إننا هنا بدون تصاريح فاعتقلونا جميعًا.
– ألم تقل لهم إنك كنت تعمل عنده؟
– لم يكلفوا أنفسهم بسؤالنا، أو الاستماع لنا، بل انهالوا علينا بالضرب قائلين لنا إننا مخربون.

عاد فريد إلى رام الله بعد أن أمضى شهرًا في السجن وكبد أهله مصاريف المحامي ودفع غرامة استطاع أن يستردها من السلطة فيما بعد. كان والده غاضبًا لما حصل معه قلقًا أمضى عدة أيام يبحث عنه قبل أن يقرر توكيل محام للبحث عنه في السجون الإسرائيلية.

وصلت سيارة الإسعاف إلى مستشفى (كرايست) في شيكاغو، وعلى الفور أدخل فريد إلى قسم الطوارئ. كان بين الحياة والموت، يستعيد في غيبوبته القصيرة شريط حياته، فرحته لم تكتمل بعد، فقد كان اليوم السبت موعد استلام أول راتب له، كان أول شيء يريد أن يفعله إرسال نصف المبلغ إلى والديه في رام الله، فهل سيشفى ويحقق طلبه؟ أم سيفصلونه من العمل لأنه غاب عنه؟

تذكّر والديه، وشوارع رام الله، ودبابات الاحتلال، وتساءل عن الفرق بين دخول المستشفى جريحًا برصاص الاحتلال، ودخوله مصابًا بحادث سير في بلد الرياح.

لا يزال يسمع بعض حديثهم بأن إصابته خطيرة. استسلم لقدره، وتراءت له الساعات الأخيرة قبل الهجرة إلى الجنة الموعودة:
كل الطرق أغلقت في وجهي، ولم يبق لي إلا خيار واحد الهجرة، مع أنني لا أحب الهجرة من أرض الوطن، فأنا مثل (غوار الطوشة) في (كاسك يا وطن) لا أحب السفر وأكره الخروج من رام الله، فهي على ضيق

مساحتها، وعلى الرغم من أنها لا تطل على نهر أو بحيرة أو محيط ولا حتى على سيل ماء، فأنا أحبها. تعودت عليها، على شوارعها، وعلى مطاردة الجيش المحتل لأبنائه. تعودت على ضرب الحجارة دفاعًا عن الوطن. أحب خبز الطابون والمسخن والمنسف، وأعشق سهرات الأهل تحت شجرة زيتون على صوت الربابة نغني:

"على دلعونا على دلعونا

أرضك يا بلادي أحلى ما يكونا"

لا أعرف لماذا استجبت لهذه الفكرة؛ الهجرة! يا الله، لكن كيف أهاجر، وإلى أين؟ لقد قدمت في السابق طلبات كثيرة لزيارة دول أوروبا، وأمريكا، وكندا، واستراليا، فرفضوني، فهل يوافقون الآن؟

– لا أدري، ولكن ماذا سأخسر؟

– ستخسر الرسوم التي ستدفعها للفيزا.

قال له صديق يريد الهجرة هو الآخر، ثم أكمل قائلاً:

– إذا لم يمنحوك الفيزا سأدفع أنا الرسوم، ماذا تقول؟

– ضمن هذه الشروط لا مانع فليس لدي ما أخسره.

فوجئت أن القنصل يوافق على منحي الفيزا، ويرفضها لصديقي، لم أصدق! فقد رفضوني من قبل عدة مرات؟!

الفرق بين رام الله وشيكاغو كالفرق بين الأرض والسماء، يبهرك مطارها الكبير (أوهير) الضخم وآلاف السيارات التي تقف على جوانبه. كيف ينظمون كل الرحلات في هذا المطار؟ هز رأسه، الآن عرفت لماذا معظم أهلنا المغتربين من أهالي رام الله لا يعودون من أمريكا إلا للزيارة؟ أصبح الوطن بالنسبة إليهم مكانًا لاستعادة الذكريات، أو المحطة الأخيرة قبل الوفاة.

دق جرس الباب على الشباب في الشقة، وبعد عدة رنات ذهب سائد ليرى من الطارق.

فتح الباب وفوجئ أن الشرطي بالباب:

– هل من مساعدة؟

– هل هنا بيت أحمد جمهور؟

– نعم، هو ينام عندنا مؤقتًا.

– هل أنت أخوه؟

– لا، لست أخاه، فهو قادم للزيارة. هل من مشكلة؟

– نعم لقد تعرض لحادث سير وهو الآن في المستشفى؟

– ماذا؟ يا الله!! في أي مستشفى؟

– مستشفى كرايست.
– حسنًا، سأحضر بعد قليل.

بعد ساعتين عاد سائد من المستشفى يبكي: ليت أني لم أذهب، فقد شاهدت جثته بوضع صعب. لا إله إلا الله. قبل ساعات كان معنا يضحك ويجادل، وها هو اليوم جثة هامدة!

صمت الجميع لحظة، فسأل أمين:
– ما العمل الآن؟
حرك سائد أصابعه ثم سأل:
– ألم يتصل أبوه هذا الصباح؟
– نعم.
– إذًا لا بد أن رقمه لا زال على شاشة الهاتف، تعالوا لنرى.

كان الجميع مسرورين أن رقم أهله في رام الله لا زال في ذاكرة الهاتف فاتصلوا بأهله يخبرونهم عن الفاجعة. رن الهاتف فلم يجب أحد.
اتصل سائد بعد عدة دقائق، وقبل أن يغلق السماعة فجأة رفع أحدهم السماعة من الطرف الآخر:
– ألو، هل أبو فريد موجود؟
– من أنت؟
– أنا من أمريكا.
– أنت فريد؟
– لا، أنا صديقه ومعي أصدقاؤه.
– أين فريد؟
– نريد أن نتحدث مع أبي فريد.
– لكني أسألكم عن فريد، فأنا من أقاربه.
قال زياد لسائد بصوت خافت:
– قل له الخبر أفضل من أن تبلغه لأبيه.
– أنت قلت إنك قريبه؟
– نعم، أنا ابن خاله عبد الرحيم.
– حسنًا، يا عبد الرحيم بصراحة لست أعرف كيف أبدأ، ولكن فريد توفي صباح اليوم.
– لم أفهم ماذا قلت؟

– قلت فريد مات قبل ساعتين.

– لا إله إلا الله. ماذا تقول؟ قبل ساعتين؟ كنت سأخبره أن أباه مات قبل قليل؟

– مات؟ أبوه؟ لقد اتصل بنا قبل عدة ساعات! سبحان الحي الذي لا يموت! وكيف سنفعل الآن؟

– هل بإمكانكم إرسال الجثة إلى رام الله؟

– الأمر ليس سهلاً ويحتاج لإجراءات من عندنا ومن عندكم ومصاريف لا تقل عن 15 ألف دولار؟

– حسنًا ادفنوه عندكم إذا سمحتم. سنعود للاتصال معكم بعد لحظات.

أغلق سائد السماعة وسألهما:

– كيف سندفنه، ومن سيتولى أمره؟

نظر لهما أمين وقال:

– سنذهب الآن إلى مقر مؤسسة الجامع لنضع الشيخ في الصورة ولا بد أن تجد حلاً لها.

استمع إمام الجامع للحادث فبكى، وقال:

– يا سبحان الله.. كأن روح الأب وروح الابن روحًا واحدة ما إن فارقت الأول حتى فارقت الثاني.

– وماذا تقترح علينا أن نفعل يا حضرة الشيخ؟

– وهل هذا يحتاج إلى سؤال؟ طبعا سنتسلمه وندفنه حسب الطريقة الإسلامية.

– تعرف أن ليس له أهل هنا لدفع المصاريف.

– أهل الخير كثيرون يا أبنائي.

اتصل الشيخ بأحد التجار الذين يعرفهم وقال له:

– أبو محمد، نريدك المساهمة في تكفين ميت مسلم مات بدون أهل...

– يا شيخ، لا تشرح لي شيئًا، أنت تقرر، وأنا أنفذ.

– جزاك الله خيرًا، وكثر من أمثالك.

نظر الإمام إليهم وقال لهم:

– لا زال فينا بعض الخير...

(تشرين ثان، 2006)

أكثر من عامين قضاهما صلاح وهو يوفر ما يستطيع من مال حتى وصل المبلغ إلى عشرة آلاف دولار، فمنذ هاجر إلى الولايات المتحدة في العام 2005 وهو يحلم بعشرة آلاف دولار، ولكنه بعد أن وفر ذلك المبلغ عرف أن قيمتها الفعلية في الولايات المتحدة ليست كقيمتها في مصر.

لم يكن صلاح يوفر فلوسه في البنك، فهو يتقاضى معظم أجرته نقدًا، ولا يصرح بها لمصلحة الضرائب كل عام لأنه لو فعل ذلك فلن يوفر شيئًا، لذلك كان يخفي أمواله في صندوق أمانات استأجره داخل البنك.

وفي أحد الأيام سمع صلاح أن دائرة التحقيق الفدرالية (إف، بي، آي) قد قامت بتفتيش أحد المواطنين العرب وصندوق أماناته في البنك بتهمة التهرب من الضرائب، فخاف على فلوسه من الضياع، لذلك قرر نقل المبلغ من الصندوق في البنك وإيداعه أمانة لدى أحد أصدقائه الذين يثق بهم.

بدأ يستعرض أسماء أصدقائه واحدًا واحدًا حتى استقر رأيه على خالد التاجر ورجل الأعمال، فهو بذلك يضمن أن لا تضيع فلوسه، وأنها بيد رجل موسر صاحب محلات تجارية يعرف كيف يحتفظ بها ويصونها.

توجه إلى خالد وعرض عليه الفكرة، فرحب به خالد واستعد لحفظ أمانته في عيونه، فأودعها صلاح عند صديقه خالد لحين استردادها.

بعد شهرين كان خالد يراجع حساباته في مكتبه، وبينما كان الموظفون مشغولين، دخل المحل أحد اللصوص حاملاً سلاحه الناري مهددًا بإطلاق النار إذا لم ينصع الجميع إليه. رفع الموظفون أيديهم إلى الأعلى، فطلب منهم أن يديروا ظهورهم، وعدم النظر إلى خلفهم. دخل اللص إلى المكتب، وطلب من صلاح رفع يديه وفتح الخزنة، وعندما حاول صلاح تأخير عملية فتح الخزنة الحديدية، أطلق اللص النار قرب قدميه فأرعبه، ففتح له الخزنة فورًا، حمل اللص كل ما بها، وحذر خالد من اللحاق به، ثم ولى هاربًا.

اتصل خالد بالشرطة التي باشرت بالتحقيق دون فائدة، فالمتهم غير معروف ولم يتعرف عليه أحد، وكاميرات التسجيل في المحل لم تلتقط أية صورة واضحة لوجه المتهم الذي يلبس طاقية تخفي أجزاء من وجهه.

ادعى خالد أن اللص سرق منه 15 ألف دولار كانت في الخزنة الحديدية. كما قدم لشركة التأمين تقريرًا بالحادث موثقًا بتقرير الشرطة.

علم صلاح بالحادث، فجاء يطمئن على صحة صديقه وسلامته، وحمد الله أن اللص لم يعتد عليه أو يطلق النار عليه، وقال له:

– في المال ولا في العيال.

خلال الحديث بينهما قال خالد لصلاح:

– كان ضمن المبلغ الذي سرقوه الأمانة التي أحتفظ بها لك.

– لا حول ولا قوة إلا بالله. أرجو أن يعوضك التأمين عنها.

فقال له:

– وما علاقة التأمين بذلك؟

– حتى لا تخسر المبلغ من جيبك.

صمت خالد لحظة ثم عدل من جلسته وقال:

– اللص سرق 15 ألف دولار، خمسة مني وعشرة لك، التأمين ليس مسؤولاً عن الأمانة.

تغير وجه صلاح وقال:

– ماذا تقصد؟ أفصح وأوجز.

– لقد وضعت عندي أمانة ولا أنكر ذلك، ولكن اللص سرقها، وأنا غير ملزم بتعويضك عنها، فقد سرق فلوسي معها.

– يا عزيزي أنا أودعت لديك أمانة، وأصبحت مسؤولاً عنها لحظة قبولك بها، وسرقتها لا ينفي عنك المسؤولية، فاللص سرقك ولم يسرق أمانتي لديك.

– هذا غير صحيح يا صلاح، لماذا أحضرت لي أمانتك؟

– يا خالد، أحضرتها لأحفظها عندك.

– كان بإمكانك حفظها في البنك أو في أي مكان أمين.

صمت صلاح ثم قال غاضبًا:

– ألم تقل إنك قدمت تقريرًا للتأمين بالمبلغ المسروق؟

– صحيح، ولكن إن عوضوني فالمبلغ لي.

– كيف؟

– أقول لك، لنفترض أنك لم تضع أمانتك عندي، وسرق اللص مني ألف دولار. كنت سأدعي أنه سرق 15 ألف دولار (قيمة التأمين) لكي أحصل عليها، أنا أدفع لشركة التأمين لأكسب منها وليس لأدفع لك.

– عجيب أمرك يا خالد؛ تريد أن تتخلى عن واجبك عن أمانتي التي احتفظت بها لديك، وتقبض من شركة التأمين زورًا وبهتانًا... كيف لي إذًا أن اقتنع أنهم سرقوا الأمانة؟

– أتتهمني جزاء معروفي لك؟

– خالد، أنا لا أتهمك، ولكني أرد على ادعاءاتك وأقوالك، على كل حال أنا وأنت ولجنة التحكيم، ما رأيك أن

نحتكم إلى إمام الجامع الشيخ مسعود؟

– الشيخ مسعود؟ ما علاقته بالأمر؟

– لنستمع إلى رأي الدين.

– المسألة واضحة ولا تحتاج إلى رأي رجل الدين.

– هي واضحة فعلاً، ولكني أرى وضوحها بغير ما تراه.

– هل تريد أن نحتكم لدى محكمة أمريكية؟

– محكمة أمريكية؟ سيسألونني عن إثباتات بأنني أودعت المبلغ لديك، وليس عندي سوى ثقتي بك.

– أشكرك على ثقتك، وأقول لك إن أمانتك سرقت، وليس لك عندي شيء.

– هل ترفض أن نحتكم إلى إمام المسجد؟

بعد تفكير قال خالد:

– حسنًا، اتصل بإمام الجامع وحدد الموعد وبلغني، وسأحضر وأبدي وجهة نظري، أنا متأكد أنه سيحكم لصالحي.

لم يرض خالد بقرار التحكيم، وظل على رفضه إعادة الأمانة إلى صاحبها ما زاد من غضب صلاح خصوصًا أنه كان يعد خالدًا صديقًا عزيزًا عليه.

كان محتارًا ماذا سيفعل؟ هل يضربه؟ كيف يضرب صديقه لأجل المال؟ ماذا عن الأمانة التي أمضى أكثر من عامين يوفرها دولارًا إثر دولار؟ كان أحيانًا يجوع، وأحيانًا يشتري أسوأ أنواع الأكل ليوفر المبلغ. هل يتنازل عنه؟ هل يتركه لعل ضميره يصحو بعد حين؟ أي ضمير وأي صحوة؟ هذه فلوسي ويجب أن تعود، لن يعود حق لا يطالب به صاحبه. لقد رفض خالد تحكيم إمام الجامع، فماذا بقي بعد؟ ليس أمامي سوى اللجوء لبعض أصدقائنا المشتركين.

لم يقبل خالد بقرار أي صديق حكم لصالح صلاح، ولكنه سعد برأي صديق له من الجزائر يدعى يزيد، واستند إلى موقفه في دفاعه أمام صلاح وطالبه الاحتكام إلى يزيد. فقال صلاح:

– ترفض قرار إمام الجامع المتخرج من الجامعة بقسم الشريعة وتريد تحكيم شخص لا يصلي ولا يعرف بالشرع؟

– ولكنه درس الدين في المدرسة، وهل الدين يحتاج إلى شهادة جامعية. الشيخ عمرو خالد لم يتخرج من قسم الشريعة.

– وهل ستقارن هذا بذاك؟

– على كل حال، قراري الأخير ليس لك عندي شيء وإن أردت نحتكم إلى يزيد.

– أمانتي في عنقك ولن أسامحك، وسآخذها يومًا ما.

افترق الصديقان، وساءت العلاقة بينهما، وصار كل منهما يتهم الآخر ويصفه بأبشع الصفات.

بعد شهور من الحادث، دخل محل خالد موظف أمريكي من شركة يحمل صندوقًا، وقال للموظف العامل في المحل:

–هل السيد خالد هنا؟

– لا، ماذا باستطاعتي أن أخدمك؟

– لديه هذا الطرد من شركة (سي. آي).

– ماذا به؟

– لا أعرف، هل يمكنك التوقيع هنا؟

– بكل تأكيد.

وقع الموظف اسمه، وأخذ الطرد، ودخل به إلى مكتب خالد، وتركه هناك، فيما غادر الموظف المحل.

عاد خالد بعد ساعة ليجد الطرد، فسأل الموظف:

– من أرسل الطرد؟

– لا أدري. جاء به أحد الأشخاص وقال إنه خاص لك أنت طلبته.

– غريب! لم أطلب شيئًا.

– ربما دعاية من إحدى الشركات.

فتح الصندوق فوجد قميصًا وبطاقة معايدة، قرأ الكلمات المكتوبة بخط اليد بالإنجليزية؛

مبارك، وصلت الهدية.

رفع القميص فوجد تحته صندوقًا صغيرًان حمله وفتحه، فوجد به بودرة بيضاء. بدا يقلب بها ويتساءل:

– ما هذا؟ هل هذه مخدرات؟

قبل أن يصحو من المفاجأة، كان عشرة أشخاص من الـــ (إف. بي. آي) يهاجمون المحل.

– (إف. بي. آي)، لا تتحركوا، انبطحوا على الأرض. ارفعوا أيديكم وراء ظهوركم.

ارتمى الموظفون على الأرض وثلاثة زبائن كانوا موجودين، فيما دخل أفراد من المجموعة المهاجمة مكتب خالد الذي فوجئ بسرعتهم.

– أوكي. أوكي.

– انبطح على الأرض.

بعد انبطاحه، قيدوه، وحمل أحدهم كيس المخدرات، وبعد التدقيق به عرفوا أنه مادة (الكراك)، فاقتادوه إلى

السجن، وأطلقوا سراح البقية وأغلقوا المحل.

حلف خالد لهم الأيمان أن المخدرات ليست له، وأن الصندوق جاءه من خلال شركة شحن لا يعرف من أرسله. لكنهم لم يصدقوه، ولم يجدوا أية علامات على الصندوق يوضح اسم الشركة التي شحنته، وقرروا تقديمه إلى المحاكمة، وإغلاق المحل حتى الانتهاء من المحاكمة.

خرج بكفالة مالية مقدارها خمسون ألف دولار. حاول فتح المحل، ولكنه فشل، فخسر زبائنه، وعجز عن سداد ديونه المتراكمة على المحل، وتلفت البضاعة داخل المحل، فقد منعوه حتى الدخول إلى المحل، فيما ظل صاحب العمارة يطالبه بالأجرة الشهرية.

في الجلسة الختامية، برأت هيئة المحلفين خالدا من التهمة وحكم القاضي بالإفراج عنه. حاول خالد من خلال محاميه المطالبة بالتعويض عن إغلاق المحل لكنه فشل، وأصيب بانهيار واكتئاب.

التقى صلاح بخالد بعد المحاكمة فقال له متهكما:

– مبارك البراءة. كنت أعرف أنك بريء.

– الله يبارك فيك.

صمت ثم قال له:

– أريدك أن تحلف يميناً أنك لم تدبر لي تلك المؤامرة.

– مؤامرة؟ أية مؤامرة؟ تتاجر بالمخدرات وتتهم الناس؟

– أنت تعرف أنني لا أقوم بذلك.

– هذا ما كنت أعرفه، لكن بعد أن أكلت الأمانة، لم أعد أثق بك ولا بأيمانك.

جاك الحزين

أمريكي من أصل روسي، أزرق العينين، ضخم الجثة، رقبته من الخلف تميل إلى الاحمرار، يحب الموسيقى والفن، ويستطيع أن يبدع من الورق أشكالاً فنية ومجسمات دون الحاجة إلى مقص أو لاصق.

كان قبل سجنه يصنع صناديق خشبية فنية للمجوهرات، كل صندوق يتكون من مائة قطعة دون استخدام المسامير، بعد الحكم عليه بالسجن لمدة 3 سنوات بتهمة التهرب من الضرائب، نقل إلى سجن فدرالي في ولاية (كانزاس) التي تبعد عن مكان إقامته في (ميتشغان) أكثر من ألف كيلو متر.

كان السجن بالنسبة إليه كإعصار دمر حياته، فلم يزره أحد طوال فترة سجنه، ولم يستلم من زوجته سوى رسالة واحدة ردًّا على رسالته إليها، وبعد شهرين من سجنه لم تعد تسمح له بالاتصال بها وغيرت رقم هاتفها.

تخلى عنه كل أصدقائه، ولم يتعرف إليه أحد، فكان يقضي وقته في السجن حزينًا. لم يترك وقت فراغه يغلبه، فكان يقضي معظم وقته في غرفة الفن يبدع من الورق الملون أشكالاً جميلة ويقدمها هدايا لمن عدهم أصدقاءه من السجناء ليرسلوها إلى أبنائهم. كانوا جميعًا يتسابقون للحصول على بعض تلك الأشكال التي أسعدت الأطفال وطالبوا بالمزيد منها، إلا ابنه ابن الـــ 15 عامًا الذي حرضته أمه على أبيه، فلم يعد يرد على رسائله.

عندما رأى جاك الإقبال المتزايد على ما تبدعه أنامله، أصبح يطالب بأثمان بضاعته، مثل حبة بوظة، علبه كولا، باكيت بطاطا، أي شيء، فجاك لا يصله من الخارج أي سنت، ولا أحد يسأل عنه، ويتقاضى في السجن 12 دولارًا شهريًّا، ولكنه بحاجة إلى شراء بعض المواد التي لا توفرها إدارة السجن للسجناء مثل الصابون، فرشاة الأسنان، الشامبو، ... الخ.

لقد عرف جاك كيف يدبر أموره ويكسب بعض المال حتى وهو داخل السجن.

كان قبل سنة على علاقة مع أحد الأمريكيين العرب الذي دعاه مرة إلى بيته وقدم له الكسكس المغربي مع اللحم فأحبه، لذلك كان دائمً كلما رأى سجينًا من أصل عربي يسأله:

– متى ستدعوني إلى وليمة الكسكس.

فيرد عليه أحدهم:

– هل تحب الكسكس، أم تحب نصفه؟

– لا أفهم لماذا نصفه؟ بل كله.

فيضحك العربي ساخرًا منه، وعندما يشرح له ماذا يقصد بنصفه، يضحك جاك ويخرج من حزنه.

سأله مرة باسم المسجون معه في غرفة واحدة:

– لماذا أنت حزين؟

تنهد جاك وقال له:

– عندما كنت أقدم الفلوس لزوجتي وأنا خارج السجن لم تكن تسألني من أين جاءت الفلوس، وكانت تصرف

بلا حساب، وبعد سجني تخلت عني العاهرة. أرسلت لها رسالة بعد وصولي هنا طمأنتها عن حالي، وقلت لها: "أنا بخير وبصحة جيدة". هل تعرف ماذا ردت علي الخنزيرة؟

أرسلت لي رسالة قالت فيها: "أوه جاك، أنت تقول إنك في السجن سعيد ومبسوط، أما أنا هنا فقلقة وتعبة، أنام وحدي لا أحد بجانبي أضمه لصدري، أنا لا أستطيع العيش هكذا أنتظرك، سأبحث عن صاحب".

فقال له باسم على الفور:

– ولماذا لا تطلقها؟

– أطلقها؟ لماذا أدفع رسوم الطلاق للمحكمة وأنا سجين؟ عليها هي أن تقدم طلب الطلاق، ليدفع لها صديقها الجديد رسوم الطلاق.

– أهكذا تخلت عنك لدى أول هفوة؟

– إنها عاهرة خنزيرة. غيرت رقم هاتفها كي لا أتصل بها. لم أعد أشعر بالراحة هنا. بعد خروجي من السجن سأسافر إلى جنوب إفريقيا. أعرف صديقًا هناك سيساعدني في أيجاد عمل.

بعد فترة من سجنه جاء إلى باسم وقال له:

– أريد منك خدمة.

– ماذا أستطيع أن أخدمك.

– أريد أن تكتب لي على ورقة هذه الكلمات بالعربية.

أمسك باسم الورقة والقلم وقال له:

– ماذا تريدني أن أكتب؟

فقال له جاك:

– اكتب بالعربية ترجمه لما سأقول لك: "أيتها العاهرة الشرموطة، أتمنى أن يركبك ألف جمل..."

قاطعه باسم:

– ولو ما هذا؟ هل تمزح؟

– لا، أنا جاد.

– ولماذا كل هذا الكلام؟

– أريد أن أرسله إلى زوجتي.

– ألم تقل أنك ستطلقها؟

– نعم، ولكن أريد أن أشفي غليلي.

– جاك دعْكَ منها وأرح أعصابك.

– اسمع، إن كنت لا تريد سأذهب إلى حسن في الغرفة الثانية.

ابتسم باسم وقال له:

– سأكتبها، ولكن لن تفهمها العاهرة زوجتك.

– أعرف، لذلك سوف تعمل على البحث عن شاب عربي ليقرأها لها.

– وماذا بعد؟

– سيضحك عليها، وستشعر أمامه بالمهانة وستثور غضبًا.

– ولماذا لا ترسل لها كلماتك بالانجليزية؟

– لأنها ستقرؤها وحدها وتمزق الرسالة، وربما تذهب تشكو عني أنني أهددها. لكن الكلمات العربية ليست كلماتي.

فقال له باسم:

– حسنًا، سأكتبها لك.

لم يقتنع جاك بما كتبه باسم، فأخذ الورقة وذهب إلى حسن، الشاب اللبناني المسجون في الغرفة الأخرى، وسأله أن يقرأ ما هو مكتوب بالورقة ويترجمه له، وعندما بدأ حسن يقرأه فوجئ بالعبارات النابية فسأله:

– ما هذا الكلام، من كتبه لك؟

فقال له:

– أريد أن أتأكد من ترجمته لأنني سأرسله إلى زوجتي.

– ترسل لها هذا الكلام؟

– نعم، لأنها عاهرة.

أخذ الورقة جاك ووضعها في رسالة ثم أرسلها إلى زوجته.

بعد أسبوع قررت إدارة السجن نقل ثلاثين سجينًا إلى سجن (أكسفورد) في (وسكنس)، وهو سجن صغير يشبه الفندق لا تحيطه الأسوار، ولا الأسلاك، ويقع في غابة صغيرة.

صعق جاك لقرار نقله، فلا يريد الانتقال إلى سجن جديد؛ لقد تعود على السجانين والسجن، وكوّن له مجموعة من الأصدقاء، وأصبح له زبائن يشترون بضاعته.

صحيح إن السجين لا يهمه أين يقضي مدة حكمه، ولكن التنقل يرهقه، تمامًا مثل الساكن خارج أسواره.

سيستغرق فتره ليتعرف إلى السجن الجديد، ويكوّن أصدقاء جددًا. كاد يبكي عندما وضع أشياءه الصغيرة في الحقيبة القماشية التي قدمتها له إدارة السجن، واضطر أن يوزع بعض قطعه الفنية إلى بعض معارفه.

عندما حانت ساعة السفر، نودي على السجناء المنقولين، فودعوا معارفهم وأصدقاءهم. اقترب جاك من باسم، فسلم عليه وعانقه، قال له باسم:

– جاك، سأراك بعد خروجنا، وسأدعوك لوليمة كسكس مع اللحم.

ضحك جاك وقال له:

– باسم، أنت غيرت فيّ كل ما كنت أعرفه عن العرب.

تعانقا، وفجأة نادى السجان السجناء، وكان جاك أولهم.

خرج إلى غرفة التفتيش ومن هناك إلى الحافلة متجهين إلى السجن الجديد، وبينهم يجلس جاك حزينًا لأنه غادر سجنًا أصبح يشعر بالحنين إليه، ولأنه صار جزءًا من ذاكرته.

(تشرين أول، 2008)

يوم ماطر في منيابولس

غادرت البيت صباحًا في يوم ماطر لا أدري إلى أين. كنت في عطلة في ذلك اليوم، وكعادتي كنت أنام ساعة أو ساعتين إضافيتين، ولكنني في ذلك اليوم استيقظت مبكرًا على غير عادتي، لا أعرف لماذا، ولا ما الذي أقلقني!

كنت أشق الشوارع شبه الخالية بسيارتي الحمراء، ففي ذلك الوقت المبكر من أيام الآحاد تخلو الشوارع كالعادة من الناس الذين يلزمون بيوتهم بعد أن كانوا قد سهروا حتى ساعة متأخرة من ليلة السبت الفائت.

إنه أحب الأيام لديَّ للتنزه في الشوارع، ففي الأيام الأخرى تكون الشوارع مزدحمة، ويتحول السير فيها إلى ساحة حرب يجاهد كل منا للوصول إلى هدفه.

يزداد المطر هطولاً على الرغم من أن الأرض ليست عطشى، فقد أمطرت السماء قبل أيام قليلة. ما أكثر

أمطار هذه الولاية وثلوجها! لذلك تتحول في فصل الربيع والصيف إلى واحة خضراء غناء بالأشجار التي تنمو في كل مكان، في وقت يجهد الناس في بلاد أخرى للحصول على بعض الماء، بل يقيم بعضهم الصلوات إثر الصلوات داعين المولى عز وجل أن ينعم عليهم ببعض أمطار هذه البلاد.

هطول الأمطار يبعث الطمأنينة في النفس، ويدعوك إلى التأني في السير، والتأمل بذلك السائل العجيب الذي لا حياة بدونه. ثورة الغضب والاستعجال التي قد تصيبك بسبب ازدحام الشوارع بالسيارات، والمارَّة يُخْلونَ المكان للهدوء، والسكينة في تلك اللحظة، وتدعوك إلى الصبر، لعله أفضل وقت يتخلى فيه الإنسان عن أنانيته.

فجأة شاهدت فتاة غارقة في الأمطار تحاول الاستنجاد بإحدى السيارات لتنقذها وتنقلها إلى مكان آمن. ترددت في نجدتها فلا أريد أن يعطل خلوتي أحد. اقتربت منها وتابعت سيري، ولكنني بعد ثوان غيرت رأيي. إنه المطر الهائل الذي دعاني إلى ذلك.

أشرت إليها بيدي من خارج الشباك فركضت بكل قوتها حتى وصلت وركبت بجانبي وثيابها تقطر ماء.

كانت مقاعد السيارة من الجلد ولولا ذلك لابتل المقعد.
قالت لي وهي تلهث:
- (هاي).
قلت لها:
- هاي، هل كنت تنتظرين فترة طويلة؟
- نعم، حوالي نصف ساعة.
- نصف ساعة؟! واو، لذا أنت مبللة؟

كانت ملابسها ملتصقة بجسمها حتى بان جسمها الأبيض الناعم.
سألتها عن أقرب جهة تريد الوصول إليها لأنني أسير في الشارع نفسه، فأخبرتني عن مكان قريب. تابعت سيري وأنا أتساءل عن سبب خروجها في يوم ماطر.

تركتها بجانبي وعدت أسبح في تفكيري. لم يكن مزاجي يسمح لي بمعاكستها أو الثرثرة معها، فمنظر المطر دائمًا يضعني في مزاج خاص.

عندما وصلت إلى المكان الذي أشارت إليه، نظرت لي قبل مغادرتها وقالت:

– سأدفع لك أجرة نقلي إلى هنا.

قلت لها:

– لا أريد شيئًا، مع السلامة.

لكنها أصرت وأخرجت من جيبها عشْرين دولارًا ودفعتها إلي. حاولت أن أعيدها لها، ولكنها كانت قد غادرت السيارة، وتابعت سيري. عِشْرونَ دولارًا!! إنه دخل إضافي لم أحسب حسابه، لعله ثمن بنزين السيارة الذي يحترق وأنا أنتقل من شارع إلى آخر في فترة اقتصادية عصيبة حيث الغلاء، وقلة الدخل المالي. ما هذه النزهة الغريبة في ظل الأمطار المتساقطة؟ آن لي أن أستريح قليلاً.

اقتربت من أحد المطاعم المشهورة. أوقفت سيارتي على بابه مباشرة كي لا تبتل ملابسي من شدة الأمطار أثناء دخولي المطعم.

طلبت من النادلة فطور الصباح وبعض القهوة. خلال انتظاري الطعام كنت أشرب القهوة، وأراقب المطر من نافذة المطعم، أخرجت هاتفي النقال من جيبي وبدأت بمتابعة المكالمات التي لم أرد عليها.

وبينما أنا مُنْهَمِكٌ في الرَّدِّ على إحْدَى الرسائل الهاتفية حتى وقفت بجانبي فتاة كنت أعتقد أنها النادلة تحمل الأكل. أدرت وجهي فإذا بها شرطية، قالت لي بلهجة آمرة:

– هل أنت صاحب السيارة الحمراء بباب المطعم؟

– نعم، هل أنا مخالف؟

– أعطني رخصة القيادة واتبعني إلى مكان منزو؟

– أنا؟

– نعم، أنت.

– غريب! ما الذي تريدينه مني؟

– سأخبرك الآن، لا تتسرع.

وقفت ولحقت بها حيث وقفنا قرب مدخل المطعم بين البابين الخارجي والداخلي.

قالت لي بعد أن نظرت إلى رخصة القيادة:

– ستأتي معي إلى القسم، أنت متهم بسرقة (جسكا بنيامين).

– أنا سرقت؟ من (جسكا) هذه؟

– ستعرف التفاصيل بالقسم.

وضعت رخصة القيادة في جيبها وأعلمت القيادة من خلال جهاز الاتصال أنها اعتقلتني.

طلبت منها اللحاق بها بسيارتي فرفضت، وأصرت على أن تضعني سجيناً في المقعد الخلفي لسيارتها بدون أن تضع القيود على يدي. لعلها شعرت أنني لست رجلاً عنيفًا، وربما أنزل المطر سكينته عليها.

قال لي أحد المسؤولين في القسم إن (جسكا) التي نقلتها بسيارتي ادعت أنني قمت بسرقة فلوسها بالقوة خلال نقلها بسيارتي، وأنني صادرت كل ما لديها من فلوس؛ مائة وعِشْرين دولاراً، وقدمت لهم أوصافي ورقم سيارتي ووصفًا عن الفلوس التي ادعت أنني سرقتها، وعندما أنكرت التهمة قام بتفتيشي، فعثر في جيبي على ورقة العشرين دولاراً التي ينطبق عليها الوصف، وكانت قد سجلت على إحدى زواياها اسمها. شرحت للشرطي ما جرى، وكيف دفعت لي المبلغ دون أن أطلب منها، ولكنه لم يصدق الحكاية، وحرر لي تهمة السرقة، وأفرج عني بكفالة مالية شخصية، بعد أن حذرني من الاقتراب منها.

– لكنني لا أعرفها، فكيف سأقترب منها؟!

هز رأسه غير مصدق.

خرجت من القسم ناقمًا على نفسي لأنني فكرت بإنقاذها من المطر. قلت لنفسي: لو بقيت في البيت لم يحصل لي ما حصل. تريد أن تخرج باكرًا في يوم ماطر؟ إذًا ادفع الثمن. أنت تعرف أن الشرطة نفسها تحذر الناس من الأشخاص الذين يقفون في الشوارع يطلبون المساعدة. كان عليها أن تستقل الحافلة. لماذا ساعدتها؟ كم مرة شاهدت أشخاصًا على أرصفة الشوارع ورفضت نقلهم؟

إنه المطر، المطر الذي غير من مزاجي.

لم أعرف أن لحظات السكينة أحيانًا تدفع لارتكاب الأخطاء.

هل أنا الذي أخطأت؟ أم أنني وقعت ضحية خداع؟

يوم المحكمة تفاءلت خيرًا، وحدثت القاضي بصدق عن تفاصيل ذلك الصباح منذ خروجي من البيت، ولكنه بعد أن استمع إلي، نظر إلى الأوراق أمامه وحكم علي بدفع مبلغ مائة وعِشْرين دولاراً لـــ(جسكا)، وخمسمائة دولار غرامة، وقضاء مائة وخمسين ساعة عمل في الخدمة الاجتماعية المجانية.

– لكن سيدي القاضي؟

– رفعت الجلسة.

وبدأ الحاجب ينادي على القضية اللاحقة.

كنت مغتاظًا من القرار، فقد دفعت سِتّمائةٍ وعِشْرين دولاراً بدل عشرين دولاراً قبضتها. لا.. لا.. ليس بدل عشرين دولاراً بل بدل حماقتي.

سأحرم بعد اليوم نقل أحد بسيارتي حتى لو كان على وشك الموت.

حرب الفئران

أمام قاضي إحدى محاكم شيكاغو التابعة لولاية (إلينويس) وقف فايز يبكي معلناً ندمه على ما فعل، وطلب من القاضي الرحمة، ومنحه فرصة ثانية لمواصلة عمله، ولكن القاضي رفض ذلك، وأصدر ضده حكمًا بالسجن ستة شهور، وثلاث سنوات تحت المراقبة، كما قرر حرمانه من مزاولة التجارة، وسحب رخصة محله ((فايز جاز أند فود)، وتغريمه مبلغ خمسين ألف دولار، عليه دفعها خلال أسبوع.

نزل القرار على فايز نزول الصاعقة، فمحله المذكور لا تقل قيمته عن نصف مليون دولار لم يترك له القاضي منها سوى ثمن البضاعة، وحتى أنه منعه من بيع المحل، واستجابت بلدية (شيكاغو) لقرار القاضي، وقررت عدم منح أية رخصة جديدة لعنوان المحل المذكور.

لم يتوقع فايز أن تصل الأمور إلى ذلك الحد. لقد شعر بذنبه؛ إنه المسؤول عما حصل له. الطمع هو السبب. كان يعيش بسلام، ويملك محل بقالة كبيرًا مع محطة لبيع الوقود في جنوب شيكاغو، على تقاطع شارعين رئيسين من شوارع منطقة مزدحمة بالسكان يتصارع عليها التجار والمستثمرون.

كان عاصم منافسه القريب الذي يقع في الجهة المقابلة له، وهو عبارة عن بقالة كبيرة بدون محطة لبيع الوقود. كان كلاهما له زبائنه، وكلاهما ناجح في عمله، لكن فايز لا يحب المنافسة، وقد عرض أكثر من مرة على عاصم بيع محله، ولكن الثاني رفض ذلك، لأنه مصدر رزقه الوحيد.

لم يهدأ فايز، وكرر المحاولة من خلال أصدقائه ومعارفه، وعندما فشل في مسعاه أرسل بعض الزعران فكسروا محل منافسه ليلاً وحاولوا حرقه، ولكن يقظة الشرطة، وسرعة الإطفائية أفشلا المحاولة، واستطاع عاصم ترميم الأضرار التي لحقت بالمحل، فعاد إلى مزاولة عمله، وزاد عدد زبائنه لأن محاولة الحريق والإعلان عنها بوسائل الإعلام ساعدت على الدعاية له ما أغضب فايز الذي قرر الانتقام من عاصم، والقضاء على منافسه نهائيًّا.

قال لزوجته وهو في الطريق إلى السجن:

– الشيطان هو السبب، لعنه الله.

فقالت له زوجته:

– لكنك انقدت له يا فايز. كان محلك ناجحًا، ولكنك كنت تريد الشارع كله لك.

– بني آدم طماع. {إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا}.

– استغفر الله العظيم على ما فعلت.

– أستغفر الله، لكني دُمّرت، لم يتركوا لي شيئًا، إنها مؤامرة، إنهم يكرهوني...

كان عاصم يجلس في مكتبه يراجع بعض الحسابات ويراقب موظفيه والمحل عبر شاشات المراقبة أمامه، فجأة دخل المحل أحد الزبائن السود يحمل كيسًا في يده، بدأ يتنقل بين الرفوف يتلفت وراءه باحثًا عن مكان لا زبائن فيه، فاشتبه به عاصم، فهم عادة لا يسمحون للزبائن التجوال بالمحل بأكياسهم أو حقائب كبيرة، لعله لص يريد السرقة. ترك ما بيده، وانطلق بسرعة إلى الجهة التي وقف فيها الزبون المذكور. عندما وصله كان الزبون يفتح الكيس ويلقي ما به على الأرض، فإذا بها عشرات الفئران التي انطلقت في كل مكان في المحل. جن جنونه، فهجم على الرجل وصاح يطلب النجدة، فهب أحد الموظفين بمساعدته حيث تمكنا من إلقاء القبض على الرجل الأسود بعد أن تعاركا معه، واتصلا بالشرطة فورًا، وبعد دقائق كان بالمحل شرطيان، فشرح عاصم لهما ما حصل، وأدخلهما إلى مكتبه لمراجعة تسجيل كاميرات المراقبة فشاهدا ما جرى بالتفصيل. أنكر الرجل في البداية التهم، ولكنه في قسم الشرطة اعترف بالحادث، وقال لهم:

– أنا لا ذنب لي، لقد أرسلني صاحب المحل المقابل فايز حيث قدم لي مائة دولار وقدم لي الكيس بالفئران وشرح لي ماذا أفعل.

فوجئ عاصم باعتراف المتهم.

– فايز أرسلك؟! لماذا؟ ما هذا الحقد الذي يعشش في قلبه؟ كأنني لست ابن بلده ولا ابن وطنه. يريد فايز أن يملأ محلي بالفئران كي تغلق البلدية المحل، ويبقى وحيدًا في المنطقة.

أحضر عاصم شركة للفئران ساعدته على القضاء عليها جميعًا، وفتح محله من جديد فتضاعفت تجارته، وأصبح يملك السوق كله لا ينافسه أحد في المنطقة.

رحلة إلى فورت لودرديل

منذ أسابيع وصديقي مشهور يطاردني طالبًا مني أن أرافقه في رحلة استجمام إلى (فلوريدا)، وعندما عرضت عليه اصطحاب زوجتينا قال مستنكرًا:

– أنا أريد رحلة خاصة بنا نستريح فيها من عناء البيت.

– ولكن (فلوريدا) بعيدة عن (وسكنسن) أكثر من ألف ميل.

– سنخترع أي سبب، سنقول إنها رحلة شباب فقط.

لم أقتنع بكلامه، لكنني وافقت في النهاية، فالرحلة مع صديقي مشهور ممتعة، فهو متحدث لبق، وصاحب نكته، وفي الطريق يسلبني بحديثه عن مغامراته النسائية الكثيرة التي لو عرفتها زوجته لأطلقت عليه النار بلا تردد.

عرض علي أن نلف (فلوريدا) كلها، قال لي:

– سنبدأ رحلتنا من (أورلندو)، ثم مدينة (تامبا)، و(كليرووتر)، و(سرسوتا)، ثم نتابع الطريق إلى الجنوب، ثم إلى الشرق حتى (ميامي) ثم فورت (لودرديل)، وهناك سنمكث ليلتين.

– لماذا فورت (لودرديل)؟

– لأنها رائعة، شاطئها جميل ونظيف، والطقس الآن حار، والشاطئ مليء بالحسان بالمايوهات والبكيني. من يدري لعلنا نصطاد بعضهن.

قلت له مازحًا:

– أو تصطادنا إحداهن.

– ها ها ها.

كانت الطريق جميلة، والجو ربيعي في شهر أيار، والأشجار أورقت وأصبحت الطريق خضراء على الجانبين. كنا طوال الطريق نستمع إلى الأغاني العربية، ولم نترك نكتة أو قصة إلا واستعرضناها وضحكنا معًا. لم نترك صديقا لم نغتبه أو نثرثر عنه، وعندما تعب صديقي قرر النوم فيما واصلت أنا السواقة لساعتين حتى استيقظ من النوم.

وصلنا إلى (فورت لودرديل)، وقد صدق صديقي، فالشاطئ هناك على الشارع العام، والمستحمون يقفون على الشاطئ، أما المارة في سياراتهم فيتوقفون أحيانًا عندما تثيرهم فتاة جميلة تستحم بالماء العادي بعد خروجها من البحر.

كنا نسير في سيارتنا رويدًا رويدًا نراقب المستحمين، أقصد المستحمات، لنثرثر عنهن، وقبل أن نقرر التوجه

إلى الفندق، لمحنا فتاة تبدو في العشرين من العمر تقف على رصيف الشارع وبجانبها شمسية تقيها من حرارة الشمس. كانت بملابس البحر (البكيني)، وتحمل في يدها علبة ماء، وبالأخرى علبة كولا مثلجة، وتصيح بصوتها الأنثوي الناعم بينما يتمايل وسطها يميناً وشمالاً:

– مشروب بارد.

وقفنا بالقرب منها. نزل صديقي على الفور من السيارة وقال لها:

– هل أنت متأكدة أنه مشروب بارد؟

– طبعًا، خذ تأكد بنفسك.

وقدمت له علبة الكولا.

حملها صديقي وهو يراقب حركاتها وقال لها:

– إنها حارة جدًّا. كيف يمكن لها أن تكون باردة وهي في يدك؟!

فهمت قصده، فضحكت وقالت له:

– هل تريد غيرها؟

قال لها:

– على الرغم من حرارتها ستكون لذيذة لأنك لمستها! من أين أنت؟ من أين جئت بهذا الجمال؟

فقالت له:

– من أمي الإيطالية الأصل.

– وأبوك؟

– أبي لا أعرفه، وأمي تقول إنه كذب عليها ولا تعرف أصله.

– لا تعرف أصله؟ غريب والله! هل ستقولين إنها لا تعرف اسمه؟

– نعم، لا تعرف سوى اسمه المزيف، وعندما بدأت تبحث عنه لم تجد أحدًا بهذا الاسم، لكنه كما قالت عربي لأنه كان يتكلم العربية.

– ولم يسأل عنك طوال هذه المدة؟

– لا، هل أنتم عرب؟

– لا، نحن من اليونان قريبة من الدول العربية.

– ما اسم أبيك؟

– كما قالت أمي، تشارلي.

انتفض مشهور وتغير لون وجهه.

– تشارلي ماذا؟

– تشارلي ستالون، هل تعرفه؟

– لا، لا طبعًا.

– واسم أمك؟ دعيني أحزر: جودي.
– نعم. كيف عرفت؟
– قرأت ذلك في عيونك.

كان الدم قد علا وجه صديقي، وأصبح يرتعش كمن أصابه مرض. حمل علبتي كولا ودفع لها عشرين دولارًا، أكثر من ثمنها بعشرين مرة، ثم قال لها:
– استأذن، مضطر للذهاب. سنعود للتعرف إليك.
ركب السيارة وقال لي:
– هيا تحرك من هنا بسرعة، أريد استخدام الحمام.
تحركت مسرعًا وسألته:
– أراك قد تغيرت كثيرًا مع أنك كنت معها في قمة تجلياتك، ما حصل؟
– لا شيء، أشعر بالتعب.
– هل أتعبك جمالها؟
– كلا.

عندما وصلنا إلى أقرب مطعم، دخل مشهور إلى الحمام، فيما انتظرته أنا بالصالة، واقترحت عليه الاستراحة هنا وتناول طعام الغذاء. لم يمانع، ولكنه لم يطلب سوى فنجان قهوة.
– قهوة الآن؟ أنت تشعر بالإرهاق.
– لعل القهوة تريحني.
سحب سيجارته وبدأ يدخن. كان شارد البال سارحًا ليس كعادته. حاولت أن أعرف السبب فلم أوفق.
كنت آكل وحدي وأتحدث إليه، لكني لم أشعر أنه كان يستمع إلى ما أقول، سألته:
– مشهور، ما بك؟
– أشعر بالتعب، وأريد العودة إلى(وسكنسن).
– الآن؟
– نعم، أنا تعبان.
– و(فورت لودرديل)؟
– سنعود إليها مرة أخرى.
– وصاحبة البكيني على الطريق؟
– سنرى غيرها.
– هناك سر تخفيه عني.

– لا، لا يوجد شيء، أرجوك يا لبيب أريد العودة إلى (وسكنسن). إن أحببت أعود وحدي بالطائرة؟
– ولو! لا، لا، سأعود معك الآن.
وعدنا من حيث جئنا. كان طوال الطريق نائمًا سارحًا يحلم بأيام زمان.

كان يعيش في (شيكاغو)، قبل أن ينتقل إلى (وسكانسن)ن شابًّا طائشًا لا هم له سوى السهر، وملاحقة الفتيات. كان يسمي نفسه (تشارلي ستالون)، ولم يكن يعرّف فتياته اللواتي يصطادهن عن اسمه الحقيقي، فهذه يقول لها إنه يوناني، وأخرى يدعي لها أنه سعودي، وثالثة إيراني، ورابعة مصري... إلخ، وعندما التقى (جودي) قال لها إإنه من جنوب فرنسا. لقد كان ذكيًّا يعرف كيف يصطاد فتياته ويوقعهن بحبه، وظل على علاقة بـــ(جودي) قرابة ستة شهور إلى أن أخبرته أنها حامل، فعرض عليها الإجهاض لكنها رفضت، فتركها واختفى من المنطقة. اتصلت به، فوجدت هاتفه مقطوعًا. ظلت تبحث عنه دون فائدةن وقد اتضح لها أنها لا تعرف لا اسمه الحقيقي، ولا مكان سكنه.

كان مشهور يستعيد لحظة أخبرته (جودي) بأنها حامل:
– جودي، يجب أن تجهضي. أنا لا أريد أطفالاً.
– ولكني أحب أن يكون لي طفل، أرغب أن أكون أمًّا.
– جودي، إذا أردت الحفاظ على علاقتنا عليك الإجهاض.
– لا، لن أجهض.
– ستخسرينني.
– تكون مسؤولاً عن ابنك أو بنتك أمام القانون.
– قانون؟ وماذا سيفعل معي القانون؟
– نفقة الطفل؟
– جودي، عودي إلى عقلك.
– تقصد تخلي عن عقلك.
– حسنًا، إلى اللقاء.

كان ذلك آخر لقاء مع (جودي)، ولكنه كان اللقاء الذي غير مجرى حياته. لم يهتم بأنها حامل منه. كل همّه كان الهرب من ملاحقاتها القانونية، فهاجر من (شيكاغو) وسكن مدينة (ملواكي) في ولاية (وسكنسن)ن ولم يعد يستخدم اسم (تشارلي ستالون)، أو يذكره على لسانه.

وصلنا إلى (وسكنسن) صباح اليوم التالي بعد يوم كامل من السواقة المتواصلة كنت فيها منهكًا تعبًا أوصلت

مشهورًا إلى بيته، وتوجهت فورًا إلى البيت مستنجدًا بزوجتي أن تسمح لي بالنوم، قلت لها: سأشرح لك كل ذلك بعد أن أستيقظ.

في المساء عندما استيقظت قالت لي زوجتي:

– إن زوجة مشهور اتصلت وأخبرتها أن مشهورًا في المستشفى.

– مشهور في المستشفى؟

لبست ملابسي وتوجهت بسرعة إلى المستشفى المذكور. كانت زوجته تبكي، وأخبرتني أنه في غرفة الطوارئ.

– ماذا حصل؟

– مشهور الآن في حالة غيبوبة لا نعرف متى ستنتهي.

كنت أزوره يوميًّا فلا أرى سوى جسد ممدد والأنابيب تحيط به من كل جانب. أربعون يومًا ومشهور في حالة غيبوبة، وفي اليوم الحادي والأربعين جاء نذير الطبيب، مات مشهور!

زوجة كوبية

كان (روجر) محاميًا ناجحًا في حياته المهنية، ترافع عن مئات القضايا أمام المحاكم الفدرالية، لكنه لم يكن كذلك على صعيد الزواج، فقد تزوج ثلاث مرات وفشل فيها كلها، حتى أن صديقاته كلهن تركنه ولم يعد تربطه بأية منهن أية علاقة، وعندما سجن بتهمة عدم الإقرار بصحة دخله المالي عن سنة 2005 وأدخل السجن، لم تسأل أي منهن عنه، ولم يصله رسالة واحدة منهن، كأنهن سررن بسجنه، ورأين في ذلك انتقامًا منه، وعلى الرغم من ذلك يصر (روجر) على أنهن كن يعشقنه وأنه كان مثال الزوج المثالي.

عمره 63 عامًا، الشيب يغزو رأسه، يقضي معظم وقته بالمطالعة، لمَ لا وهو المحامي القدير، حكم عليه بالسجن لمدة 18 شهرًا لأنه قدم معلومات خاطئة لمصلحة الضرائب حيث أخفى عنها دخله الحقيقي، فهو محام ومعظم المحامين يتقاضون أجورهم نقدًا لأن المتهمين عادة يدفعون للمحامين أموالاً لم يصرحوا عنها أصلاً.

إنها لعبةٌ من لم يتقنها زار السجن. السجون الفدرالية كثيرة، وليس مهمًّا أين تقيم، فإدارة السجون ترسل السجين

إلى أي سجن تشاء، فقد يكون السجين من (نيويورك) مثلاً فيرسلونه إلى (تكساس) وقد يكون من (ميتشغن) فيرسلونه إلى (كاليفورنيا)، ولكن حظ (روجر) كان قويًّا، فقد أرسل إلى (كانساس) على الرغم من أنه من (ميسوري) لكنها ملاصقه لها من الحدود الغربية.

كان مع زملائه السجناء دائم الحديث عن زوجته الأخيرة (ماريا)، فقد تزوجها وعمره ستون سنة فيما كان عمرها 28 سنة، وعندما تسأله عن هذا الفرق الشاسع في الأعمار، يجيبك بثقة إنها كانت سعيدة به ،وإنه كان يرضيها جنسيًّا،و لكن الأحكام في النهايات.

سافر (روجر) إلى (كوبا) على الرغم من أن الحكومة الأمريكية تنصح رعاياها عدم السفر إلى هناك، ولكنه لا يسمع نصائحها، بل يكرهها، أي الحكومة الأمريكية، ويرى فيها شرًّا يطبق على البلاد. اشترى هناك شقة صغيرة بـــ 12 ألف دولار فقط، وهو مبلغ ضئيل نسبة إلى محام أمريكي، وهناك تعرف إلى (ماريا) وتزوجها.

كان سعيدًا معها طيلة وجوده معها ،وبعد سنة قرر العودة إلى الولايات المتحدة، فأخذها معه باعتبارها زوجته، وفي بيته الجديد عاش معها حياة سعيدة ،وبدأ يعلمها في مدينة (سانت لويس) الأمريكية في ميسوري الطرقات واستخدام السيارة، ثم أرسلها لتعلم الإنجليزية، ولكن بعد عدة شهور بدأت تنقلب عليه.

عاد أحد الأيام ولم يجدها، وبعد اتصالات عديدة، ادعت أنها لدى بيت صديقتها (كاترينا) الكوبية الأصل، وبعد ساعات ادعت أنها ستنام عندها ولا تستطيع العودة.

كان (روجر) من خلال حديثها قد وصل إلى قناعة أنها سكرانة، وأنها ربما في حفلة مع بعض الأصدقاء، وعندما أصر على أن تعود إلى البيت أغلقت الخط بعد أن شتمته.

في الصباح عادت تعتذر له عما حصل، واعترفت له أنها كانت سكرانة، وأنها كانت تسهر مع (كاترينا) وأصدقائها.

أحس (روجر) أن الأمور بدأت تفلت من يده، فاقترح عليها أن تلتحق بكلية لتتعلم بعض المواد التي يمكن أن تسليها، ولكنها اكتفت بدروس اللغة الإنجليزية.

بعد أسبوعين، عاد (روجر) ليجدها في البيت وقد بدأ عليها السكر؛ كانت مخمورة إلى أبعد الحدود. بدأت تصرخ عليه وتطلب منه الطلاق، فقال لها:

– توقفي عن الصراخ.

فحاولت ضربه بيدها. مسك يدها وحذرها من إعادة المحاولة، فذهبت تتصل بالشرطة فسألها:

– لماذا الشرطة؟

فقالت له:

– لقد علموني بالمدرسة إذا ضربك زوجك اتصلي برقم 911.

– وماذا علموك أيضًا؟ ألم يعلموك احترام زوجك؟

كانت في حالة جنونية، تركته، وذهبت إلى المطبخ وبدأت تكسر أواني المطبخ، وعندما عاد ليمنعها رفعت عليه السكين لتضربه بها، ولكنه استطاع أن يخلصها منها، تركها وذهب إلى الغرفة الأخرى.

بعد نصف ساعة ،كانت الشرطة في البيت، شرحت لهم أنها تعرضت للضرب، فيما وضح لهم (روجر) كذب ادعاءاتها وأدخلهم إلى المطبخ ليريهم الأواني المكسورة، وأشار لهم إلى السكين التي كانت في يدها تحاول ضربه بها، ولأنها كانت سكرانة فقد أخذوا بكلامه، فهو أيضًا رجل أبيض ومحام، وهي زوجته كوبية لا تجيد الحديث بالإنجليزية.

اقترح عليه أفراد الشرطة أن يترك البيت خوفًا من أن تعتدي عليه حتى تعود إلى حالتها الطبيعية، إلا أنه رفض ذلك، وأصر على البقاء في بيته، واقترح عليها أن تأخذ مائة دولار وتذهب لتنام عند صديقتها فوافقت على الفور.

في الصباح استيقظ (روجر) مبكرًا، ففي هذا اليوم يذهب للعب (الجولف) وزوجته تعرف ذلك. ترك البيت وذهب ليمارس هوايته، وبعد أن عاد وجد كل المجوهرات والأدوات صغيرة الحجم قد سرقت، كما سرق جهاز الحاسوب، وبعض الأدوات الثمينة الإلكترونية، حتى الساعة القديمة الكبيرة التي ورثها عن جده والتي تساوي عشرة آلاف دور قد سرقت. عرف أنها فعلتها، فاتصل بصديقتها، فأخبرته أنها لم تأت لتنام عندها ونفت علمها بمكانها. اتصل بالشرطة التي سجلت الاتهام ضدها، وأخبرته بعد يوم أنها غادرت أمريكا متوجهة إلى كوبا.

– فعلتها ابنة الزانية! لعنها الله.

لم يسافر إلى كوبا لملاحقتها، لكنه قدم أوراقه إلى المحكمة يطالب الطلاق، وبعد عدة شهور وقبل أن يدخل السجن وافقت المحكمة وأصدرت أمرها بطلاقهما.

كان سعيدًا بطلاقها، ولكنه بعد تنهد قال:

– لقد كانت غبية جدًّا.

– لماذا يا روجر؟

– لأنها لو انتظرت عدة شهور أخرى حتى دخلت السجن لسرقت البيت كله بما فيه، ولخرجت أنا لا أجد حصيرة أنام عليها.

– وماذا ستفعل بعد خروجك من السجن؟

– سأبحث عن غيرها.

– في عمرها؟

– طبعًا، فأنا ما زلت شابًّا.

– شابًّا في الـــ 63 من العمر؟!

– ليس المهم العمر، المهم أنني أفعل ما يفعله الشباب.

(تشرين أول، 2008)

زوجته والقطة

عاد مساءً إلى بيته ليجدها قد رحلت وأخذت ابنهما معها. لم تترك أية رسالة توضح سبب تركها البيت، ولكن كان واضحًا أنها لن تعود، فقد أخذت معها كل متاعها ومتاع ابنهما الصغير ابن الثماني سنوات. لم ترد على اتصاله بها ما أثار شكوكه؛ هل حصل شيء معها ومع ابنهما (رتشارد)؟ اتصل بأمها على الفور في ولاية (كلورادا) التي تبعد أكثر من ألف ميل عن مكان إقامته في ولاية (وسكنس)، سألها:

– هل اتصلت بك جودي؟

– جودي تركت البيت ولن تعود إليك؟

– هل تعرفين أين هي الآن؟

فقالت له بجلافة:

– أعرف، ولا أريد أن أخبرك لأنها لا تريدك في حياتها.

– لماذا؟ ما الذي حصل يا إلهي؟

– أنت رجل عنيف...

صمتت لثانية ثم تابعت:

– ربما لأنك جئت من وراء الجمال.

– لماذا هذه الشتائم؟ متى ستفهمون أن بلادنا فيها مدن وحضارة وشوارع وليس صحراء وجِمال؟

– ها ها ها، كلكم الشيء نفسه...

– هل من سبب؟

– أنت تعرف السبب.

– لم يحدث بيننا شيء بالأمس.

– أتنكر؟ أرأيت لأن العنف جزء من حياتكم، ألا تفجرون أنفسكم لتقتلوا الآخرين؟

اشتد غضبه فقال لها:

– أعرف أنك حقودة تكرهين العرب والمسلمين، أين أستطيع أن أرى جودي ورتشارد؟

– لن تراهما.

– صدقيني لم يحدث شيء.

– أنسيت من ضربت؟

– ضربتها؟ والله لم أضربها، اسألي رتشارد؟

– أعرف أنك لم تضرب زوجتك...

قاطعها قائلاً:

– إذًا ضربت من؟

– ضربت (سندي).

– سندي؟ تقصدين القطة.

– لماذا تقولها بقرف؟ نعم، القطة الجميلة المسكينة.

– حتى القطة لم أضربها.

– ألم تسقط على الأرض بسببك؟

– لم أقصد ذلك، فقد كنا مشغولين بالحديث عن الحرب في العراق، وموت آلاف الأبرياء هناك.

– تتضامن مع الإرهابيين في العراق...

قاطعها:

– أنا لا أتضامن مع إرهابيين، أنا أتضامن مع الضحايا الأبرياء.

– كلهم مجموعة يستحقون القتل، أنسيت ما حصل بالحادي عشر من أيلول؟

– وما ذنب الشعب العراقي بما حدث في الحادي عشر من أيلول؟

– كلكم إرهابيون مجرمون، يكفي ما فعلته بالقطة المسكينة.

– أريد التحدث مع ابني.

– ابنك؟ إنه ابن جودي، ليس بينكما سوى المحكمة للطلاق وحضانة الابن.

– سآخذه رغمًا عنها.

– ها ها ها، وهل تعتقد أن المحكمة ستحكم لصالحك بعد أن تستمع لما فعلته مع القطة؟

– كل هذا من أجل قطة؟

– لقد أبلغتك أن لا تتصل هنا مرة أخرى وإلا قدمنا شكوى ضدك إلى الشرطة، أنت إرهابي.

ثم أغلقت الخط.

نظر إلى هاتفه النقال، أغلقه وأعاده إلى جيبه.

جلس على المقعد العريض يفكر بما سيفعله بعد رحيل زوجته مع ابنه بدون عودة. حمل ريموت التلفزيون، ضغط الزر، بحث عن القنوات العربية التي كان نادرًا ما يشاهدها بسبب زوجته التي لا تفهم العربية، ولأول مرة يشعر بحرية في التنقل بين القنوات والفضائيات. فجأة توقف عند إحدى الفضائيات التي تعرض مسرحية لعادل إمام ثم انفجر ضاحكا إثر أحد المشاهد الفكاهية، ظل يضحك بصوت عال، وتواصل ضحكه حتى كادت أنفاسه تنقطع، قال لنفسه: اللهم اجعله خيرًا، لأول مرة في حياتي أضحك مثل هذا الضحك منذ زواجي بجودي قبل عشر سنوات. هز رأسه ثم تابع: لولا هذه القطة ما ضحكت أبدًا!!

شعرة الموت

صرخت به صديقته عندما عاد إلى البيت:

– هل أحضرت الحليب والخبز؟

فرد عليها بغضب:

– لا لم أشتر شيئًا. لا يوجد معي فلوس.

– ولماذا عدت إذًا؟ هل تريد أن ترى الأولاد يموتون؟ أي أب أنت؟ أنت...

قاطعها وقد غلبت إمارات الغضب على وجهه:

– إن لم تكفي سأحطم رأسك.

– تحطم رأسي؟ هذا ما فلحت به؟ ماذا تريد مني؟

سكتت لثوان ثم قالت:

– إن كنت تفكر بذلك الشيء فعليك أن تعيد حساباتك...

غضب (جي. بي) وخرج من البيت لاعنًا صديقته، وذلك اليوم الذي أنجبت له فيه أطفالاً.

– من أين أحضر لها الطعام؟ لا يوجد معي فلوس.

الكلاب في قسم المساعدات الحكومية لم يدفعوا لنا هذا الشهر، طلبوا مني العمل...

هز رأسه ساخرًا وتابع هلوساته:

– العمل؟! أين؟ كل المحلات التي ذهبت أبحث عن عمل بها رفضوني، طبعًا لأنني أسود، والسود غير مرغوبين في شركات البيض إلا للأعمال الثقيلة والوسخة!! ما الحل؟ وجدته، وجدت الحل.

فجأة بدأ يقهقه كأن كنزًا هلّ عليه من السماء.

عاد إلى البيت، ودخل إلى غرفة النوم. وبعد لحظات خرج، سألته:

– إلى أين؟

– سأحضر لك الحليب الآن.

خرج وقد رسم في ذهنه طريقة إحضار الحليب. كان يمشي من شارع إلى آخر، وفي أحد الأزقة استدار يمينًا وشمالاً، حتى تأكد أن أحدًا لا يراقبه. اقترب من سيارة مركونة إلى يمين الشارع، أخرج سلكًا من جيبه وبخفة يد فتح الباب، لحظات كان قد فر بالسيارة إلى جهة مجهولة.

حماد رجل في الأربعين من عمره، يملك بقالة صغيرة في أحد أحياء مدينة نيويورك، حي مكتظ بالفقراء، وأصحاب الدخل المحدود، ومعظمهم من السود ومن أصول لاتينية (نسبة إلى أمريكا اللاتينية).

الوقت صباحًا. كان حماد وحيدًا في محله، فهو في غير حاجة للعمال، العمل لا يستوعب الكثير من العمال. كان يحاسب الزبائن الذين يدخلون ما بين الفنية والأخرى، فهذا يشتري علبة بيبسي كولا، وذلك باكيت بطاطا، وذلك علبة بوظة، وآخر رغيف خبز. فجأة وبسرعة البرق دخل المحل فتى أسود شاهرًا مسدسًا وصارخًا بأعلى صوته:

– تقشيط (ستك أب)، هات كل الفلوس، لا تتحرك وإلا أطلقت النار.

ذعر حماد الذي هاله سرعة الفتى الأسود الذي تقنع بجراب للنساء على وجهه كي لا تلتقط كاميرا المراقبة صورته ولا يتعرف هو عليه.

قال حماد بعد أن رفع يديه:

– أوكي. خذ كل الفلوس.

كانت يداه ترتجفان، فلحظة التأرجح بين الحياة والموت لحظة تاريخية يصعب وصفها، أو تصورها. فتح حماد (الكاش رجستر) حسب أوامر الفتى الأسود وأخرج كل الفلوس منها، فقال له اللص: ضعها كلها في الكيس. فوضعها. كان حماد حيران بين أن يشيح ببصره عن اللص كي لا يقتله، فاللصوص عادة إن شعروا أن الشخص الذي يسرقونه تعرف إلى وجوههم قتلوه، وإن توهموا أنه لن يعرفهم يتركونه، ولكن الخوف من أن يضغط اللص

على الزناد، فظل حماد بطرف عينه يراقب حركة يد اللص.

وعندما انشغل اللص لثوان بكيس الفلوس لم يدر حماد كيف تجرأ وفر إلى مخزن المحل، وعاد ببندقته من نوع قاتل (شت جن)، وصوبها باتجاه اللص الأسود الذي شعر أن حلمه بالفلوس قد تبخر، فركع على ركبتيه على الأرض وصرخ يطلب الرحمة من حماد:

– أرجوك، أرجوك، لا تقتلني. أولادي يصرخون، ليس عندي أكل لهم. أرجوك...

لم يصدق حماد ما يجري أمامه. هذا اللص الذي كان قبل لحظات يريد قتله، ويصدر الأوامر إليه يركع الآن يطلب الرحمة. هل أقتله؟ هل أتصل بالشرطة؟ لا بد سيعود لينتقم مني؟ ربما كان صادقًا. آه من الفقر والجوع، لقد جربته قبل أن أهاجر إلى هنا...

فقال له حماد:

– لماذا لم تشتغل؟

– لا أحد يشغلني، لقد طرقت كل الأبواب.

فقال له:

– قف، اذهب إلى هذا الرف، خذ بعض الخبز والحليب، خذ معك جالون حليب.

أخرج حماد من جيبه بيده اليسرى أربعين دولارًا ورماها له على الأرض. وقال له:

– خذها وانصرف، لا تعد إلى هنا.

التقطها اللص وفر هاربًا غير مصدق أنه نجا من موت، أو سجن محقق.

بعد يومين، كان حماد في المحل يبيع بعض الأولاد بعض الحلويات، فدخل عليه فتى أسود، بملابس عادية، لم يبحث عن شيء وتوقف أمام حماد قائلاً له:

– هل لي أن أسألك شيئًا؟

– ماذا تريد؟

كان حماد قد اشتبه به، فقد تعود على كل حركات الزبائن ومحاولات بعضهم للسرقة.

– أريد أن أسألك ما دينك؟

استغرب حماد سؤاله، وقال له:

– ومالك بديني؟

– أريد أن التحق بذلك الدين.

ظنه حماد يريد أن يتقرب منه لعله يريد أن يطلب دينًا، فقال له:

– هل تريد أن تصبح مسلمًا؟

– أأنت مسلم؟

– نعم، وأنت مسيحي؟

– لا، لا دين لي.

– ولماذا تسألني؟

– ألا تعرفني؟

حاول حماد أن يتذكره، لم يدر بخلده أن أمامه ذلك اللص الذي جاء إلى المحل ليسطو عليه.

دقق النظر مرة أخرى، وقال له مندهشًا:

– أنت ذلك...؟

– أنا هو.

– وماذا تريد؟

– لا شيء، جئت أشكرك، فقد أنقذت أطفالي، وأنقذتني من السجن، وكان بإمكانك أن تقتلني. كنت طوال تلك المدة أفكر ما الذي يدفع مثلك وقد كنت على وشك قتلك لو استطعت، أن تصفح عني وتقدم لي 40 دولارًا وخبزًا وحليبًا إما إنك مجنون، أو... لا أعرف.

هز حماد رأسه وقال:

– لقد تعلمت العفو من سماحة الإسلام ومحبته.

– هل تقبلوني على دينكم؟

– الدخول إلى الإسلام ليس مرهونًا بموافقتي، إنه يعتمد عليك، هل تريد أن تتغير؟ هل أنت مستعد للإيمان الحقيقي؟ لترك المعصيات؟...

قاطعه:

– أنا مستعد لكل ذلك.

– إذًا ردد ورائي: "أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله".

بعد أن نطقها (جي. بي) بلهجة غير واضحة، هجم عليه حماد وعانقه، كان (جي. بي) يبكي غير مصدق: هل أنا في حلم؟

ربت حماد على كتفه، وقال له:

– اذهب الآن واسترح وسأراك الليلة في الجامع القريب لنتابع الحديث.

لم يترك غالب موقعًا للدردشة على الشبكة العنكبوتية إلا وزاره، خصوصًا المواقع التي يشارك فيها الجنس اللطيف، مستخدمًا عشرات الأسماء الوهمية لكي يصل إلى هدفه.

يريده صيدًا ثمينًا هذه المرة، فهو لم يعد يلتفت إلى الدردشة مع العجائز على الرغم من أنه تجاوز الخمسين من عمره، ولم يعد يرضى بغير الجميلات ليعوض عن سنوات عمره التي قضاها مع زوجته التي يصف فترة زواجه بها بأنها أسوأ أيام حياته، وأنه لم يسعد بيوم واحد معها بعد زواج استمر أكثر من ثلاثين سنة.

أخيرًا جاءه الصيد إلى الشبكة بنفسه؛ فتاة في العشرين من عمرها، قالت له إنها تبحث عن رجل كبير في السن لأنه الأقدر على إسعادها!!

بعد شهرين كان في الطائرة المتجهة من (نيويورك) إلى (شيكاغو) حيث تسكن الفتاة، فقد وعدته أن تراه في مطعم فاخر بعيدًا عن عيون الناس. إنه يعرف (شيكاغو) جيدًا وكل (إلينويس)، فقد عاش هناك فترة طويلة، ولديه بعض الأقارب، خاف أن يراه أحدهم لذلك كان موعده معها في أحد مطاعم (سكوكي) ذات الأغلبية اليهودية.

جلس في مكان قريب من الباب ينظر إلى النساء الداخلة لعله يراها، فصورتها لا زالت في خياله: يا الله، ما أجملها! ما أروعها! متى سنكون وحدنا؟ سأعوض معها كل سنوات الشباب التي ضاعت مع أم الأولاد قبحها الله. ياه هل سيتحقق حلمي هذه المرة؟ حاولت مرارًا أن أحادثها مباشرة على الشبكة، ولكنها كانت تتذرع أن أهلها سيلاحظون ذلك. لم أحظ منها إلا بمكالمة تلفونية من هاتف عمومي حتى لا يسجل في الفاتورة أنها اتصلت بأحد غريب، فالأهل هنا يراقبون اتصالاتها حتى لا يغدر بها الشباب.

ما أجمل أن تكون على موعد مع حبيب! الثواني تمر بطيئة كأنها سنين طويلة!!

لن يستطيع أحد أن يغدر بها، فأنا مستعد للزواج منها إن أحبت، على سنة الله ورسوله، وتبقى زوجة بالسر! بالسر؟؟ أنا أحبها وهذا كل شيء، إنها فتاة جميلة، فيها كل ما أبحث عنه، ستروينى بالتأكيد بعد عطش السنين الماضية. أشعر أنني لن أتركها لحظة تبتعد عني.

فجأة قطع حبل أحلامه دخول بعض الزبائن العرب إلى المطعم. قال في نفسه: غريب ما الذي أتى بهم إلى هذا المطعم البعيد؟ يا لحظي السيئ! يا إلهي من؟! ابن أختي زياد في المطعم؟ ومن يكون الداخلان معه، يقينا أنني سأنكشف، كل خطتي فشلت، دعني أفكر ما العمل الآن؟

تظاهر بالحديث بالهاتف وأشاح بوجهه جانبًا محاولاً عدم الاحتكاك بهم لكي يهرب من المطعم قبل وصولها.
أحمد الله أنها سمحت لي الاتصال بها في حالات الطوارئ.
اقترب الشباب الثلاثة منه وكأنه على موعد معهم، فجأة وقفوا عند طاولته حتى إذا أدار وجهه كانوا أمامه وجها لوجه.
قال له زياد:
– مرحبًا خالي! أنت في (إلينويس)؟ متى جئت إلى هنا؟ ولماذا لم تخبرنا حتى نستقبلك في المطار؟
– مَن؟ زياد ابن أختي وحبيبي، كم أنا مشتاق لك والله، كنت سأتصل بك بعد هذه المكالمة المهمة لأخبركم أنني سأزوركم الليلة. آسف، لم أستطع إخباركم، فقد كانت زيارة عمل لم أخبر أحدًا بها حتى زوجتي حتى لا تخرب الصفقة. ألم تسمع بقول الرسول الكريم "اقضوا حوائجكم بالكتمان"؟!!
– بالكتمان يا خالي؟!
– لم تعرفني على الشباب؟!
– عدنان ابن رشيد من أقاربنا ولو هل نسيته؟
– أنت عدنان؟ أووف على السنين كيف تمر، أعرفك وأنت طفل صغير، كيف حال الأهل؟
– وهذا سلمان ابن صاحبك المحروق.
– ابن المحروق؟ مش معقول!
سلم عليهم وهو يلعن تلك الساعة التي جعلته يختار هذا المطعم البعيد ليلتقي فيه بحبيبته، ثم قال لهم:
– عندي الآن موعد مع مندوب شركة لذلك لا تؤاخذوني لو جلستم لوحدكم بعض الوقت، سأكون معكم.
رد عليه زياد:
– لا تقلق يا خالي، نحن هنا لبعض الوقت وسنغادر.

جلس غالب متظاهرا بالانشغال، وبدأ يخطط للخروج من هذا المأزق الذي حشره فيه زياد، وبعد ثوان كان يضع الهاتف النقال على أذنه، خرج من المطعم ليتصل بها كي لا يسمعه أحد. رن جرس هاتفها، لكنها لم ترد، أعاد الكرة دون جدوى، قال في نفسه: أين تكون الآن؟ لقد تأخرت بعض الوقت، اللهم اجعله خيرًا. بينما هو مشغول يحاكي نفسه، صعقه صوت زياد الذي لحقه مع زميليه سائلاً:
– ما الذي يشغلك يا خالي؟
رد عدنان بتهكم قائلاً:
– يبدو أن مندوب الشركة قد تأخر.
فأكمل زياد:
– تقصد مندوبة الشركة؟! ها ها ها!
استفز غالب فاستشاط غضبًا وصرخ في زياد:

– ماذا تقصد يا ابن أختي، أفصح؟

– أقصد المندوبة التي تنتظرها.

صمت قليلاً ثم قال:

– ميسون يا خالي ميسون!

تغير وجه غالب، اصفرّ واحمرّ، بدأ يتأتئ في الكلام:

– ميسون؟ من ميسون هذه؟

– هل نسيت من ميسون؟

نظر إلى زملائه وغمزهم بعينه ثم بدؤوا كأنهم كورس غنائي:

– أنا قلبي لك ميال، تررم، ومفيش غيرك ع البال... تررررم.

أصيب بصدمة، لم يعرف كيف يفكر، إنهم يغنون تلك الأغنية التي كان يغنيها لحبيبة قلبه ميسون، ويكتبها لها في رسائله وعلى الماسنجر، كيف عرفوا كل ذلك؟ هل أخبرتهم ميسون بكل شيء؟ أم أنهم من الهاكرز الذين يدخلون بريد الآخرين ويعبثون بأسرارهم؟ اللعنة عليهم، من أحضرهم إلى هنا؟

تماسك قليلاً ثم قال:

– زياد استح على دمك ويكفيك هذيانًا، ما هذا الكلام مع خالك؟ اغرب عن وجهي وسيكون لي معك كلام آخر عندما أزوركم.

رد عليه زياد ببرودة أعصاب:

– لكنك لن تزورنا يا خالي، وميسون لن تحضر.

– قلت لك اغرب عن وجهي، من ميسون هذه؟

أخرج زياد من جيبه رزمة من الأوراق وناوله إياها:

– خذ اقرأ وسترى.

أخذ غالب الأوراق، تفحصها على السريع، وقد هاله ما بها، بدأ يتمتم لنفسه:

– يا إلهي إنها رسائلي إلى ميسون! كيف وقعت بيد اللعين زياد، آخ منك يا ميسون، هل يا ترى عرف أهلها الخبر وهم الذين أعطوها لزياد؟ اللعنة عليك يا ميسون أين أنت؟ يبدو أن أحلامي كلها أصبحت الآن حبرا على ورق!!

نظر إلى زياد بغضب، وسأله:

– من أين لك هذه الأوراق؟

– من ميسون.

– وهل تعرفها؟

– طبعًا.

هنا رد سلمان وعدنان بصوت واحد:

– ونحن نعرفها أيضًا.

– وأنتما؟ يا عيني وكيف تعرفتما إليها؟؟

– منذ زمن بعيد.

– ولماذا لم تحضر؟

– بل هي حاضرة!

– أين هي؟ اللعنة عليكم.

– هي أمامك.

– ماذا تقصدون؟

– كما تسمع.

– هل تقصدون أن ميسون هي ززز....؟ مش معقول!

ضحك زياد، وقال له:

– لماذا غير معقول؟ هل تريد أن أريك كل رسائلك على الحاسوب عندي؟ وتحتفظ برسائلي عندك؟ يا فرحتك يا غالب!! أليس أفضل من أن تكون في حاسوب شخص آخر ينشرها على الناس ويجعل منك مضغة في أفواههم؟ على الأقل أنت خالي، وسأصون سرك، ولكن أرجو أن لا تبحث عن ميسون جديدة على الشبكة الدولية، حتى لا تصل رسائلك هذه إلى زوجتك وأولادك فتصبح في ورطة كبيرة.

احمرّ وجهه. نظر إليهم جميعًا، لم يدر ما يقول، تمنى لو انشقت الأرض وبلعته، إنها إهانة، لطمة، لقد مرغ هؤلاء الفتيان أنفه بالتراب، بل بالزبالة، ضاعت هيبته، يا لهؤلاء الملاعين، كيف استطاعوا أن يجعلوا مني أضحوكة؟ يبدو أن أولادنا أكثر دهاءً منا.

ركب سيارته وغادر المكان وهو يلعن زياد وأخته التي خلفته. بدأ يهذي مثل المجانين، ميسون.. زياد؟ يا لأحلامي التي أصبحت حبرًا بدون ورق، أو ورقًا بدون حبر! هل كانت أحلامًا فعلاً أم مجرد أوهام كنت أعوم فوقها؟ كيف صدقت أنها تحبني، وهي في سن أولادي؟ كنت أحاول خديعتها، بل كنت أحبها، تحبها؟ كل الرجال في مثل سني يحبون الصبايا، انظر إلى عيونهم حينما تمر صبية جميلة من أمامهم، يحاولون التهامها كلها، حتى وإن تظاهروا بعكس ذلك، وحدهن النساء اللواتي يعرفن ما يدور بأذهان رجالهن، ولكن ماذا يمكنك أن تقدم لها؟ كيف يمكنك إسعادها؟ ألم تفكر ولو لحظة؟ هل سيخبر زياد زوجة خاله؟ أم سينسى الأمر؟ هل سأعاود الكرة لأبحث عن ميسون جديدة؟ لعن الله ميسون، وكل ميسون، يبدو أنه جرس الإنذار يعلن بدء مرحلة جديدة.

وصل غالب البيت في نيويورك، وعندما فتحت زوجته الباب كان غالب أمامها يحمل باقة ورد جميلة، استغربت تصرفه غير المعتاد، ابتسمت ثم قالت:

– ورد من غالب؟ الله، ما هذه الرومانسية يا حبيبي؟

ضمته إلى صدرها، وطبعت قبلة على شفتيه كانت الألذ منذ زواجه منها:

– ما هذه المفاجأة الجميلة يا غالب؟؟

رد عليها بهدوء:

– هذا من ميسون يا حبيبتي.

قالت له بعد أن شمت رائحة الورد:

– يبدو أن ميسون هذه بائعة ورد رائعة! وأين يقع محلها؟

اقترب منها بعد أن أمسك بيديها وقال لها:

– سأحكي لك الحكاية فيما بعد، أما الآن هل يوجد أحد من الأولاد في البيت؟

– لا، لا أحد. تعرف أنهم يتأخرون حتى منتصف الليل.

– حسنًا، هذه فرصتنا.

اقترب منها أكثر بعد أن قبّل يديها كأنه يلمسهما لأول مرة. نظر إليها بعيون عاشق عشريني، لم تستطع أن تقاوم نظراته فأغلقت عينيها مستسلمة لهذا الحنان النازل عليها من السماء. اقترب أكثر حتى لامست جبهته جبهتها. فجأة طبع قبلة على جبينها، ضمها بقوة لصدره، وأغمض عينيه، يحلم بحب جديد.

قالت له بصوتها امرأة ناعمة تنام على صدر معشوقها:

– لأول مرة أراك بهذا الشوق!

– وأنا لأول مرة أراك بهذا الجمال.

(أيلول، 2007)

في فخ امرأة

كان يقود سيارته بهدوء كعادته، وقد وضع حزام الأمان ليس حرصًا، ولكن خوفًا من الوقوع بيد أفراد الشرطة بحجة مخالفة القانون. فجأة ظهرت له فتاة جميلة وجذابة يبدو أنها مقطوعة كانت ترفع إبهامها، وهي الإشارة المتعارف عليها في الولايات المتحدة للمقطوعين من المواصلات والفلوس، والراغبين بمساعدة لنقلهم لأقرب مكان ممكن. خفف السرعة، ودقق النظر فيها فهاله جمالها، كانت ترتدي تنورة قصيرة جدًّ وبلوزة نصفها الأعلى كان مفتوحًا ما يجعل الناظر إليها يشاهد معظم نهديها.

توقف لها وقال:

– هاي، اصعدي.

– هاي، شكرًا لك.

صعدت وطلبت منه نقلها إلى مكان قريب، ثم أدارت وجهها إليه ورفعت رجلها اليمنى على اليسرى فلم يبق من المستور إلا القليل، وسألته بغنج زائد:

– أنا سوزي...

وانتظرته ليعرف عن نفسه.

– مسعود، اسمي مسعود.

– هاي مسود (لم تلفظ العين طبعًا)، لقد انقطعت من الفلوس، ولا يوجد معي أي سنت، هل يمكن أن تقرضني عشرين دولارًا. أعرف أنك لا تعرفني، ولكني مستعدة أن أقدم لك ما تريد مقابلها.

– مثل ماذا؟

سألها وهو يدقق النظر بها كأنه لم ير جسمًا كجسمها من قبل.

كان منظر جسمها مغريًا، ورائحة عطورها تخدر الجسم فلا يرى فيها سوى تلك المتعة الجنسية التي يبحث عنها. اقتربت منه قليلاً قبل أن تجيبه، لمست يده القريبة منها، وسحبتها برفق ثم وضعتها على إحدى فخذيها وبدأت تداعبه بها ثم قالت:

– أي شيء مسود، أي شيء.

– هل تقصدين؟

– نعم أقصد ذلك.

بدأت تسير بيده على جسمها من الأسفل إلى الأعلى حتى ارتطم بالنهدين.

بدأ يتصبب عرقًا وازدادت دقات قلبه، ثم بدأ يسائل نفسه: ماذا عن زوجتي؟ لكنه قبل أن يسترسل في تفكيره. كان يجيب نفسه قائلاً: إنها أكثر جمالاً، وأطرى جسمًا، هكذا تكون النساء.

صمت مسترخيًا بينما كانت يده فوق نهديها، سألها:

– كل ذلك بعشرين دولارًا فقط؟

– هل هذا كثير؟

– طبعًا لا، ولكن تعرفين ماذا بعد ذلك؟

– أعرف تمامًا وسوف تجدني رهن إشارتك.

– أين؟ أتعرفين فندقًا نذهب إليه؟

– لسنا بحاجة إلى فندق. سنذهب إلى شقتي.

– إلى شقتك؟

– طبعًا، إنها أكثر أمانًا وراحة.

فكر قليلاً، نظر إليها مرة أخرى فقد سلبته كل ما يملك في رأسه، تجرأ ووضع يده بنفسه على بطنها الرفيع وأجابها:

– قبلت العرض.

– أعرف أنك لن ترفض هذا الإغراء، ثم كشفت عن نهديها لثانية وأعادت البلوزة كما كانت.

– لكني لا أريدك أن تنسى العشرين دولارصا فقد تأخذنا المتعة وننسى، لذا أرجو أن تدفعها لي سلفًا.

– حسنًا، لا مانع.

بدأ يتمتم في نفسه: ما قيمة العشرين دولارًا أمام هذا الإغراء؟

أخرج من جيبه عشرين دولارًا وناولها المبلغ.

بعد قليل كان معها في غرفتها، وقبل أن يباشر ما جاء من أجله دق جرس الباب، فاضطرب قليلاً واعتقد أن بالأمر مكيدة ربما لسرقته، فقال لها:

– لا تفتحي، هل تتوقعين أحدًا؟

– لا، لا أنتظر أحدًا؟

– من يكون بالباب إذًا؟

– لا أدري. لم أنت خائف؟

– لست خائفًا، لكني أرجو ألا يكون في الأمر مكيدة.

تركها تفتح الباب وهو على أهبة الاستعداد لأية مواجهة. فجأة دخل عدة رجال أمن بزي مدني، وتوجهوا له مباشرة قائلين:

– هل السيارة الزرقاء رقم... سيارتك؟

– نعم.

– وأنت مسعود...؟

– نعم، ما المشكلة؟ هل خالفت قوانين السير؟

– لا، لكنك خالفت ما هو أهم من ذلك، سيد مسعود أنت رهن الاعتقال لأنك تمارس الدعارة.

– الدعارة؟

– نعم الدعارة، ألم تدفع لها عشرين دولارًا مقابل الجنس؟!

فوجئ مسعود بما يقولون؛ كيف عرفوا ذلك؟ هل هي عاهرة معروفة لأهل المنطقة؟ أم أنها تعمل مع الشرطة؟

أدار وجهه إليها مدققًا في عينيها، فأراحته عندما ابتسمت ورفعت له شارة الشرطية من تحت تنورتها القصيرة.

صدم مما هو فيه، نظر إليها باحتقار، فلم يعد يرى فيها أفخاذًا ولا نهدين ولا عينين، بل أفعى بسم تنفثه من ملمس جلدها. يا إلهي كيف لم أنتبه لذلك؟

بدأ يعض شفتيه لهذه الفضيحة، فغدًا سوف يُكتب عنه في الصحف، وستعرف زوجته وأولاده، وسيظل يشعر بالخزي لأن هذه التهمة ستظل في ملفه طوال العمر.

بدأ يضرب أخماسًا بأسداس. كل ذلك من أجل عشرين دولارًا، لو فعلت ما فعلته بدون فلوس لم يتجرأ أحد على اعتراضنا، أما وقد دفعت عشرين دولارًا فعلي أن أدفع ثمنًا باهظًا، لن أنساه طيلة حياتي، لم أكن أنوي ملاحقة بنات الهوى، لكنها خدعتني، بتدبير من الشرطة، فلماذا اختاروني بالذات ليجروا علي تجاربهم.

حسنا ما دمت قد وقعت فلم لا أنتقم منها أمام زملائها.

أدار وجهه إليها وبدأ يضحك بصوت عال بعد أن كبلوا يديه، سألها:

– لماذا طلبت مني عشرين دولارًا فقط مقابل الـــ...؟

– حتى يسهل اصطياد أمثالك.

هز رأسه وقال:

– لا ليس لذلك يا سوزي، لست صادقة.

– لماذا إذًا يا مسود؟

سأله الشرطي.

– تذكّر ما تقوله سوف يستخدم ضدك في المحكمة.

– أعرف ذلك، ما أريدكم أن تسجلوه أنها طلبت عشرين دولارًا، لأنها لا تساوي في السوق أكثر من ذلك! ها ها ها ها.

صرخت به سوزي:

– اخرس يا وغد، أنا لا أرضى بمثلك كلبًا عندي.

– أوه، شيء آخر نسيت أن أقوله لكم؛ قبل أن نأتي إلى البيت، لم أصدق أن جسمها له رائحة نتنة إلا عندما وضعت أنفي عليه، جربوا إن أردتم.

هجمت عليه لتضربه، فمنعها أحد رجال الشرطة، قائلاً:

– سوزي، لا تنس أنك في مهمة رسمية.

سحبه رجال الشرطة إلى الخارج، وقبل أن يدخلوه إلى السيارة قال لها بصوت عال سمعه الجيران:
– سوزي، لقد دفعت لك عشرين دولارًا، لكني حصلت منك فقط على ما يساوي ثلاثة دولارات، فأعيدي إلي الباقي.

دفعه أحد أفراد الشرطة إلى داخل السيارة وتابعوا سيرهم إلى قسم الشرطة في المنطقة.

(آب، 2006)

في مهب الريح

في زيارته الأخيرة إلى الأردن، كان خلدون سعيدًا بالالتقاء بأقاربه هناك، وكانت سعادته الكبرى بوجود زوجته وأبنائه معه، فهي فرصة لكي يختلطوا بأهلهم وأبناء عمومتهم ويمارسوا معهم بعض الطقوس والعادات العربية، فلعلهم يعودون بعد شهرين وقد تحسنت لغتهم كثيرًا، فلا زالوا على الرغم من كل محاولاته لا يجيدون الحديث بالعربية بشكل سليم، فلغتهم الأساس هي الإنكليزية، فهي لغة المدرسة، والتلفزيون، والأصدقاء، والسينما، واللغة التي يتفاهمون فيها مع أمهم التي لا تعرف العربية لأن لغتها الأولى إسبانية، فهي مكسيكية الأصل هاجرت مع أهلها إلى الولايات المتحدة، كما هاجر خلدون إليها طالبًا للدراسة.

كانت (ساندرا) فتاة جميلة أعجب بها خلدون وظل يطاردها حتى أصبحت صديقة وبعد شهور كانت زوجته، أنجب منها طفلين أحدهما أحمد والثاني عماد. لم تمانع زوجته في اختياره للأسماء، فقد كانت تطيع زوجها كعادة أهل المكسيك، طيبة، خلوقة، ولم تمانع في ارتداء الحجاب، وفي النهاية أراحته وأعلنت إسلامها وبدأت تتعلم الدين الإسلامي.

كان خلدون مشتاقًا لأهله بعد هذا غياب 15 سنة، وبدأ بالتعرف إلى الشباب الجدد واحدًا واحدًا.

في أحد الأيام دعاه أحد الأقارب إلى العشاء، وبعد العشاء كان الجميع قد استعدوا مع كأس الشاي ليشاهدوا أحد المسلسلات، وكعادتهم اعتذر الأولاد (أولاده) عن الحضور، وذهبوا إلى غرفة ليستمعوا إلى أغنيات أحضروها معهم لـــ (ويتني هيوسنون). أما زوجته فقد طلت معه، ولكنها كانت تثرثر مع زوجة قريبه فرحان بعربية

مكسورة، ماذا قال هذا الممثل وماذا قال ذاك؟

كان قريبه فرحان بين الفترة والأخرى يتحدث إليه عن وضعه هناك، وكان يسأله عن العمل في أمريكا والحياة، وإن كان بإمكانه أن يساعده للسفر إلى هناك.

صحتان يا خلدون، صرت أمريكانيًّا، زوجته إسبانية، أولاد يتكلمون الإنجليزية، أما نحن هنا في الأردن، فليس لدينا شيء نعتز به.

كان خلدون يستمع إليه ويهز برأسه، يتذكر حياته هناك.

ليته يعرف الحقيقة، لكان غير رأيه. كان خلدون يحسد قريبه على حياته الجميلة الهادئة، فكل العائلة تتجمع على العشاء، ها هم جميعًا يشاهدون التلفزيون معًا، ويشربون الشاي معا.

ليته يعرف أنني قبل حضوري إلى هنا كنا قد قسمنا البيت إلى ثلاث مناطق؛ فغرفة خاصة بي لا يدخلها أحد، وغرفة خاصة بالأولاد، وثالثه لأمهم (ساندرا)، أما غرفتنا الرابعة فكانت غرفة النوم، الغرفة الوحيدة التي ظلت مشتركة لأنها لا تعرف إلا لغة واحدة لا تحتاج لمترجم يترجم فيها الأحاسيس النارية الملتهبة.

سنوات كثيرة مرت ونحن على وئام، لا أستطيع القول إننا اختلقنا، ولكن الحياة أبت أن تجمعنا.

حاولت جهدي أن أعلم الأولاد اللغة العربية، ولكن لم أوفق كثيرًا، فأمهم لا تعرف العربية أصلاً وهي معهم طوال النهار، فأصبحت لغة التخاطب الأساس لديهم اللغة الإنجليزية حتى تفوّقا على أبيهم وأمهم، مع الأيام صارت لهم اهتماماتهم الخاصة، وجذبتهم الحياة الأمريكية رغمًا عن أبيهم ومحاولاته الفاشلة.

كان خلدون كلما جلس يستمع لنشرة أخبار الجزيرة يهرب الأولاد إلى غرفة أخرى، وكلما أراد مشاهدة مسلسل مثل (أولاد الحارة) يشاهد زوجته وقد غلبها النعاس.

في الصباح كان يستيقظ أحيانًا فيستمع إلى أغنية لأم كلثوم، أو كاظم الساهر، أو شيرين، وبعد دقائق يعلو صوت المسجل في غرفة ابنيه بأغنية أمريكية، في حين تكون أمهما (ساندرا) تعد الفطور على ألحان أغنية (أنت حبيبتي) لمطرب مكسيكي، وعندما كان أحدنا يقف في وسط البيت لا يعرف أي الأغاني يسمع.

وبعد أن تكررت الأوضاع اتفقنا على حل وسط؛ كل واحد يستمع إلى أغانيه بغرفته وبصوت هادئ حتى لا يزعج الآخرين.

حاول خلدون توحيد لغه البيت وعاداته، ولكنه فشل، وعندما كان يحدثهم عن الإسلام والدين كانوا يقولون له: نحن مسلمون مثلك، ولكن لا نستطيع التحدث بالعربية.

عندما تعرف إلى زوجته(ساندرا)، كانت عواطفه تقوده نحوها، ولم يحسب حساب اللغة، اعتقد أن الإنكليزية تكفي للتخاطب والتفاهم، ولم يكن يعلم إلا بعد أن جربها أن اللغة ليست فقط لغة تخاطب، ولكنها أيضًا وعاء ثقافي، وفكري، وطريقة حياة.

لعيونك يا فلسطين سأغني!

اليوم الأحد، وعلي ألا أنسى دعوة صديقي حسان لحضور حفل زفاف ابنه، فالتخلف في هذه المناسبات غير مبرر، ولا تقبل فيها الأعذار، وأهم ما في الأعراس حضور المدعوين، فالحفل بدون ناس ليس له طعم ولا رائحة.

لم أكن أتخلف عن حفلات الزفاف التي كنت أدعى إليها من قبل الأصحاب، والأقارب، فقد كانت مكانًا لتجمع الأحبة والمعارف، وفيها نشارك مع بقية الشباب في الدبكة الشعبية، ونغني "على دلعونا"، و"ميجنا"، و"وين ع رام الله"، وغيرها من الأغاني التي كان يغنيها لنا مطرب تلك الحفلة.

الحديث عن تلك المناسبات فيها من الشجون ما يكفي لأن أكتب عنه كتابًا، ولم يختلف الأمر عندما انتقلت إلى الولايات المتحدة، وبقينا نغني للوطن وللعودة.

وصلت برفقة زوجتي الساعة السادسة مساء لنكون من الفوج الأول من المدعوين، فصديقي حسان يستحق أن أقف معه في تلك المناسبة. كان وزوجته في استقبالنا، وأصر على مرافقتنا إلى الطاولة التي اختارها لنا، فقد كانت قريبة من الفرقة الموسيقية في وسط القاعة، وعلى الرغم من إلحاحي أن أكون بعيدًا عنها، فلم أعد ذلك

الشاب اليافع الذي لا يترك مناسبة إلا ويدبك فيها، فللسنّ أحكام وقوانين، فقد أصر أن أجلس هناك لأكون قريبًا من فرقة الغناء، والرقص، والدبكة، وقال لي قبل أن يتركني:

– لن تهرب من الدبكة يا سالم، حضر حالك سندبك معًا، ونرقص، فهذه ليلة لا تعوض.

حقًّا، إن ليلة زفاف الأولاد والتمتع بمشاهدة الفرح في عيونهم لا تعوض، وهذا عرس ابنه البكر عباس. أليست فرحتنا نحن الآباء في مشاهدة جيل الأبناء وهم في قمة فرحهم وسعادتهم؟!

كنت جالسًا حول الطاولة المخصصة لنا مع زوجتي وبعض المعارف. فجأة اقترب مني رجل في سني، يبدو أنه يعرفني، كان يمشي مسرعًا باتجاهي، وقد بانت أسنانه من البسمة، ورافعًا يده سلفًا لأصافحه. كان يسرع بخطواته بحيث لم يفسح لي المجال لتذكره. اقترب أكثر، فبادلته البسمة، ووقفت لأسلم عليه، وعندما اقترب مني تمامًا وصار أمامي، هجم علي ليعانقني، وهو يقول:

– أين أنت يا سالم؟ والله لك وحشة، ما هذا الشعر الأبيض الذي بدأ يغطي رأسك؟

عانقته بحرارة، فلا يعقل أن لا أرد التحية بأقل منها، وفجأة عرفته من صوته، وظرت إليه مستغربًا بدون أن أشعره، وقلت له:

– هشام؟!! أوووووف، ما هذه المصادفة؟ هل أصبحت تعيش في أمريكا؟

– منذ 15 سنة.

– لم أسمع عنك في شيكاغو؟

– يا عمي لسنا على البال، طبعًا أمريكا أنستك أحبتك وأصحاب زمان.

ثم أكمل:

– أنا في ولاية أوهايو، ولكني جئت إلى منسوتا بدعوة من أهل العروس لأحضر زفاف ابنتهم.

ياه! أكثر من عشرين سنة لم أره، ولم أسمع عنه شيئًا، ولم يفكر أي منا بالسؤال عن الآخر.

كنا أصدقاء، أكثر من إخوة، رفاق درب، سجنّا معًا في زنازين إسرائيل العنصرية، واجهنا السجان والسجن، ولم نترك مظاهرة لم نشارك فيها معًا، ولا مسيرة، ولا تحركًا شعبيًّا، إلا وكنا في طليعته...

لا بد أنه يتذكر، أجزم أنه يفكر الآن بما أفكر به، بل أقسم أنه يحدث نفسه بما أحدث به نفسي.

تعرفت إلى زوجته وتبادلنا التحيات. أفسحت له مكانًا حول طاولتي، فمن غير اللائق أن لا أفعل ذلك بعد كل تلك السنين.

قال لي:

– السنين زرعت الشيب في رأسك.

ابتسمت وقلت له:

– وجمعتنا بعد طول فراق.

ألم تجمعنا بعد أن فرقتنا السياسة؟ كان يقول لي:

– إلى متى سنبقى رافعين راية تحرير كل فلسطين؟ إلى متى سنظل نطالب بعودة اللاجئين إلى فلسطين؟ أمريكا لن تسمح بذلك.

وعندما اختلفنا بدأ يصفني بأنني من أصحاب الأفكار المحافظة، ولم يكتف بذلك، بل أصبح يكتب ضدي ويهاجمني وكأنني عدوه وليس صديقه.

دقت الموسيقى، وبدأ الشبان يتمايلون على صوتها، آآآآآه يا ليل...

تمايل صديقي ومال إلي هامسًا:

– هل تذكر حفلة زفاف عليان في بيت عنان؟ هل تذكر عندما كنا ندبك معًا ويدي بيدك؟

إنه يدغدغ مشاعري بأسئلته، وكأنه نسي كل ما فعله بي، نسي في آخر ندوة حضرناها معًا عندما أغاظه رأيي فحمل كرسيًّا يجلس عليه، وخرج عن طوره ليهجم به علي، ولولا أن فرّق بيننا الشباب لكان حصل ما لم يحمد عقباه.

منذ تلك الفترة لم أعد أراه ولم أعد أحضر أية ندوات، فرقتنا السياسة، سافرت إلى أمريكا وتركت له الوطن، لم أفهم كيف يختلف رفاق الدرب الواحد وهم يواجهون عدوًّا واحدًا شرسًا لا يفرق بين واحد وآخر.

نعم، فرقتنا الأيام، بل هزمتنا، كسرتنا، باعني هذا الصديق أمام أول خلاف سياسي نشب بيننا.

هل نسي صديقي كل ما فعله؟ وما حصل منه؟ أم أنه اعتبر ما جرى كان أيام زمان عندما كان محسوبًا على الوطنيين والأحزاب؟

اليوم بعد أكثر من عشرين سنة، يبدو أنه ترك العمل السياسي، فتغيرت أفكاره، هل كان مسؤولاً عما حصل؟ أم أنسى الموضوع وكأن شيئا لم يكن؟!

بعد نصف ساعة، جاء صديقي حسان وسلم علينا ودعانا لندبك معًا، تململت بعض الشيء، لكنه سحبنا الاثنين وأقسم أن ندبك معًا احتفالا بلقائنا بعد انقطاع طويل، ذهب إلى المطرب وهمس في أذنه، فإذا بالمطرب ينتقل فجأة

إلى الأغنية الفلسطينية المشهورة:
"يا بو عقال وكفية والمهرة العربية
لعيونك يا فلسطين رح غني هالغنية"

وقفت أحرك يدي وأدْبك أمام هشام الذي حمل الحطة الفلسطينية بعد أن سحبها من أحد الشباب، والتف الشباب حولنا يدبكون بعد أن شبكوا أيديهم ببعض، كنا نتمايل كأننا في وسط فلسطين، آخ على أيام حفلات الزفاف في قرى رام الله!!!

كان هشام لا زال يتمايل كالشباب، نسي كل خلاف السنوات الماضية، نسي كل شتائمه واتهاماته لي، نسي الكرسي الذي حمله ليضربني به، ها هو أمامي يدبك ويغني مع المطرب، ويوجه لي قبلاته على الهواء مباشرة كأنه في حفلة من حفلات رام الله في مطلع الثمانينيات.

انتهت الأغنية، فانتقل المطرب مباشرة يغني أغنية فرقة العاشقين الفلسطينية:
"اشهد علينا وعليهم يا بيروت،
اشهد على الحرب الشعبية"

انفعل صديقي كثيرًا، وصار يردد بصوته العالي والمسموع بقية الأغنية مع المطرب:
"واللي ما شاف من الغربال يا بيروت،
أعمى بعيون أمريكية"

هشام يتمنى العمى للعيون الأمريكية على الرغم من أنه يعيش فيها وربما يعرضه ذلك إلى السجن، لكن يبدو أن حماسه أنساه نفسه.
كان يقول لي عندما اختلفنا: الحل بيد أمريكا، وعلينا كسب ودها. واليوم بعد أن تخلى عن السياسة صار يغني أعمى في عيون أمريكية!!

تعبنا من الدبك فانسحبنا إلى الطاولة تاركين الحلبة إلى جيل الأبناء، ليتنا نترك لهم كل شيء ونريح أنفسنا.
قلت له مازحًا:
– العريس لم يدبك مثلك، يبدو أنك تريد أن تصبح مكانه.
ضحك وهو ينظر إلى زوجته سهام المنشغلة مع زوجتي في الحديث وقال:
– ليس لي أفضل من سهام.

تبادلنا الحديث وتابعنا أبناءنا يدبكون ويرقصون، كانوا يذكروننا بكل خطوة وكل حركة بأيام الشباب، كانوا أكثر خفة منا يبدو أنهم سيحتلون مكاننا بعد قليل.

سألت صديقي هشام قائلاً:

انظر، لقد تعبنا وتركنا الحلبة للأبناء، فلماذا لا نترك لهم كل شيء ونراقبهم كيف يقودون الحلبة؟

ضحك ثم قال:

– أعتقد أنني فهمتك يا سالم، ليتهم يفعلون ذلك فقد يحققون ما عجزنا عنه نحن.

ثم أكمل قائلاً:

– سالم، ألا زلت تذكر أيام خلافاتنا؟

– نسيتها يا هشام، مرحلة ومرت، فلماذا نستعيد ذكرياتها؟

– هل أستطيع القول إن قلبك صفى لي بعد كل السنين التي مرت؟

– لم أحمل في قلبي إلا المحبة لك، ولكل أصدقائنا القدامى.

– شكرًا على مجاملتك.

صمت لثوان... ثم قلت له:

– هل بقي شيء نختلف عليه يا هشام؟

قال لي متعجًا:

– في الوطن فرقتنا السياسة وهنا وحدتنا الدبكة، أليس ذلك مدعاة للضحك؟

ضحكت ثم قلت له:

– لعل أبناءنا يتعلمون من أخطائنا.

نظر إلى وجهي، وسألني:

– هل تذكر يا سالم؟ ألا تحن إلى أيام زمان؟ هل تذكر تلك الأغنية التي كنا نغنيها معًا في زنزانة المسكوبية في القدس؟

هززت رأسي، وقلت له:

– وكيف أنساها، لكن هل هذا وقتها؟

– لم لا؟

تعجبت من أسئلته، فقلت له:

– إن كنا لا زلنا نحمل الوطن في قلوبنا، فلماذا جئنا إلى هنا؟

نظر إلي محدقا، وقال:

– جئنا نبحث عن مستقبل مزيف لأبنائنا، هربنا من نار إلى نار، من نار الاحتلال إلى نار الغربة، جئنا نصنع

جيلاً من الأبناء لا يعرفون فلسطين إلا عبر الصور المنشورة في الشبكة العنكبوتية.

– هل فعلت فيك الدبكة كل هذا الحنين؟

– وأنت، هل مات الحنين فيك إلى الوطن؟

– دخيلك لا تفتح مواجعي ودعني أطرب مع العروسين في حفل زفافهما، ...

فجأة وقف وتقدم نحو المطرب فوق المنصة، كان يتمتم في أذنه، وبعد دقيقة كان هشام يحمل المايكروفون ويغني مع الفرقة الموسيقية:

"وين ع رام الله وين ع رام الله

وانت يا مهاجر وين ع رام الله"

كنت أهز رأسي طربًا، بينما أسائل نفسي، هل جئت إلى حفل زفاف؟ أم إلى حفل آلام؟؟؟

(شباط – فبراير، 2008)

ليلة لن تنسى

خرج من البيت مساءً لا يدري إلى أين يذهب. كان يشعر بالملل والإرهاق. اتصل من هاتفه الخلوي بالموظف المسؤول في المحل، وأمره أن يغلق المحل في الموعد المحدد لأنه لن يعود الليلة ليساعده.

كان الطقس دافئًا، وأنوار السيارات تزين الطريق السريعة. اليوم الجمعة والناس هنا يذهبون لقضاء سهراتهم، أما هو وأصدقاؤه فيتركون زوجاتهم في البيوت ويذهبون للسهر وحدهم.

لكن هذه الليلة مختلفة عن الليالي السابقة، فكل أصدقائه مشغولون كأنهم اتفقوا عليه ليتركوه وحده تتقاذفه أمواج البحر.

هذا اليوم يذكره مجدي جيدًا لأنه غيّر مجرى حياته كلها.

كلما يجلس يقلب دفاتره القديمة ويتذكر تلك الليلة ويتمنى لو أصيب بمرض أقعده البيت ولم يخرج، ولكن الأيام لا تعود إلى الوراء.

كان أول اتصال مع مصطفى فكان الخط مقفلاً. الملعون أقفل الخط! يبدو أنه في سهرة مع إحداهن، ها ها ها،

ذهب لوحده. حسنًا عندما أراه سيكون لي معه رأي آخر.

الطريق السريعة مزدحمة كأنه يوم الحشر. الكل يسير باتجاه وسط البلد، ويجد نفسه ينجرف مع التيار فيغير اتجاهه من طريق سريع إلى طريق سريع آخر، سيذهب إلى وسط مدينة (منيابولس)، ومن هناك سيقرر إلى أين يذهب.

في الطريق اتصل مع سامر:
– سامر، أين أنت؟
– أهلاً مجدي، والله أنا اليوم مشغول، لقد عادت أختي اليوم من أرض الوطن وأنا في زيارتها مع زوجتي.
– يا سامر تستطيع رؤيتها غدًا، اليوم الجمعة!
ضحك سامر:
– الوضع محرج ولا أستطيع، سأراك غدًا.

أما أحمد فقد أخبره أنه وعد زوجته أن يأخذها إلى المطعم الياباني وقد حجز هناك وهو في الطريق إليه.

كل أفراد الشلة مشغولون إلا هو، هل آخذ زوجتي وأخرج؟ وماذا أفعل بالأولاد؟ لا، لا، دعها تسهر معهم.

فكر أن يذهب إلى محلات (شيك)، ولكنه عدل عن رأيه أخيرًا، فعلى الرغم من فخامة المحل فقد ملّه، لم يعد فيه جديد. الراقصات لم يتغيرن منذ ستة شهور، ولا يحب أن يذهب هناك بدون أصدقائه.

وصل إلى وسط المدينة. المشاة أكثر من السيارات، فالبارات هناك في شارع رقم 4 على الجانبين، والنساء في ملابس السهر. رائحة عطورهن تشجع على الرقص. هل يوقف سيارته في إحدى محلات إيقاف السيارات ويذهب إلى إحدى البارات؟ أم يواصل السير في السيارة يمتع نظره بالناس على الجانبين.

واصل السير لا يعرف أين سيتجه.

عندما وصل شارع (نكلت) اضطر إلى التوقف أمام الإشارة الضوئية، إنها إشارة مملة يعرفها جيدًا، فمدتها طويلة كأنها الدهر. هذا الشارع هنا موقف للحافلات، لا تستطيع أن تذهب يمينًا أو يسارًا، عليك انتظار الإشارة لمواصلة السير إلى الأمام. هذه الإشارة أصبحت من الإشارات التاريخية في حياة مجدي، كلما مر من هناك يلعنها ويلعن تلك الليلة التي تحول فيها لون الإشارة من الأخضر إلى الأصفر. كان بإمكانه أن يواصل سيره فقد

كان باستطاعته أن يقطع مفترق الطرق قبل أن تتحول الإشارة إلى اللون الأحمر، ولكنه أراد التوقف. كان يبحث عن مبرر ليوقف سيارته كي يميل بصره يمينًا ويسارًا، كأنه يبحث عن شيء لا يعرفه. إنه الملل؛ عندما تشعر بالملل ولا تعرف ماذا تريد ولا إلى أين أنت ذاهب، تسير على غير هدى، تتخبط لا تعرف ما يخبئه لك القدر.

كان شباك النافذة مفتوحًا، والنسيم يداعب شعره، وصوت الموسيقى الصادرة من المسجل يطربه، بينما كانت عيونه تلاحق إحدى الفتيات في الجانب الأيسر. فجأة فتحت باب الجهة اليمنى فتاة عشرينية ممتلئة أنوثة، وعندما أدار وجهه فوجئ بها تجلس بجانبه، وترمي نفسها عليه، ثم تبدأ بتقبيله بشراهة، كأنها لم تر رجلاً بحياتها.

لم يصدق، ما الذي يجري بالسيارة!

قال لها:

– ما الذي تفعلينه؟

– أنا أحبك، أريدك، دعني...

نظر إليها، كانت جميلة، بيضاء، صدرها ممتلئ، رائحة الخمر تفوح منها، سكرانة بلا شك، مستعدة لكل شيء. لم لا، فيوم الجمعة في هذا البلد يوم المفاجآت والعجائب. لكن هنا في الشارع؟ يا إلهي، ما أغباها!

صمت قليلاً، ثم أقنع نفسه بأنها سهرته الليلة.

من أين جاءت؟ لعلها هدية السماء له؟ من يدري ربما ستكون لعنة السماء الأبدية.

رفع يدها عنه وقال لها:

– حسنا انتظري كي لا يراك أحد.

– لا تقلق، ليذهب الجميع إلى الجحيم، المهم أنت، أنا أريدك الآن، بسرعة.

كان يضحك في داخلة ويقول:

– هل أنا في حلم؟ من أين حلت علي هذه النعمة؟

الإشارة تغيرت إلى اللون الأخضر، ضغط على البنزين واتجه إلى الطريق السريع، وعندما ابتعد عن الأضواء بدأت تداعبه في كل مكان. لقد أثارته الملعونة، أهذا ما يفعله الخمر بالنساء؟!

اقتربت منه، طوقت كتفه بذراعها الأيسر. فيما واصلت يدها اليمنى ما كانت تفعله، كان سيطلب منها التوقف، ولكنها كانت تسكته بقبلاتها. لم يعد يعرف كيف يقود السيارة، السيارة بدأت تتمايل ذات اليمين وذات اليسار، حاول تهدئتها لكنها لم تستجب له.

بدأ يتصبب عرقًا. شاحنة كبيرة كانت تسير بجانبه من الجهة اليمنى، يبدو أن صاحبها انتبه لما لما تقوم به

المرأة التي هلت عليه من السماء، فضغط على المنبه بقوة متواصلة، ارتبك مجدي واعتقد أنه انحرف عن خط سيره فحرف سيارته إلى اليمين لم ينتبه أن سيارة أخرى بجانبه فقرب منها، ضغط فورًا على الفرامل ليوقف السيارة فضربته سيارة تسير خلفه لم يتوقع سائقها وقوفه المفاجئ. ما الذي يجري؟ حادث مروع سيارة تضرب أخرى، فقد وعيه لم يعد يشعر بشيء.

استيقظ ليجد نفسه بالمستشفى، كان بوضع صعب غير قادر على الحركة. حاول تحريك قدمه فلم يستطيع. قيل له إنها مكسورة كسرًا بليغًا، وإن يده قد بترت. لم يصدق ولم يعرف هل يبكي على يده الضائعة، أن على كسر رجله، أم على غبائه، أم على تلك الليلة التي غيرت مجرى حياته كلها...؟!

فجأة دخلت عليه زوجته، بدأت تبكي وتولول على حاله وهجمت عليه تعانقه حزنًا عليه، لأول مرة يشعر بحنان زوجته، وعطفها، وحبها. لماذا لم يشعر بذلك الحنان من قبل؟ ألأنه كان بدون مشاعر، أم لأن تلك الليلة أفاقته من غفوة طويلة؟

هل يعترف لها؟ هل يقول لها لماذا هو هنا؟

بدا حائرًا لا يعرف ماذا يقول، انعقد لسانه، لم يعد يميز شيئًا، ذاكرته أصيبت بانهيار، فقد معظم ذاكرته، ولكنه لم يفقد ما جرى في تلك الليلة، وكلما حاول أن ينساها، عادت له بقوة.

محمد في قفص الاتهام

فجأة رن جرس الهاتف، بينما كان أشرف يحلق ذقنه استعدادًا للتوجه إلى شركته. نظر إلى شاشة الهاتف الخلوي فعرف أن المتصل مدير مدرسة ابنه محمد. استغرب اتصاله في الصباح الباكر، فلم يسبق لأشرف أن استقبل اتصالاً من المدرسة على هاتفه الخلوي مبكرًا، فقد مر على مغادرة ابنه محمد البيت متوجهًا إلى المدرسة الابتدائية عشر دقائق. فتح الخط ورد قائلاً:

- ألو.
- هاي، نعتذر على إزعاجك، لكن نحتاج إلى الحديث معك في أمر مهم، ولذا ندعوك إلى زيارتنا هنا في

المكتب.

- هل هناك أمر مهم سيد هاملتون؟
- نعم هو مهم، ولكن لا تقلق نفسك كثيرًا، فسوف نشرحه لك حينما تحضر.

لم يصدق أشرف ما يسمع فبدأت تراوده الوساوس:

- هل حصل لمحمد أي مكروه؟
- لا، لا ليس الأمر كذلك، سنعلمك عندما تحضر.
- هل أصيب في حادث سير في الطريق؟
- لماذا تفترض كل ذلك، الأمر يتعلق بأمر آخر.
- حسنًا، هل نستطيع أن نؤجل هذا الاجتماع مستر هاملتون؟
- أفضل اليوم فالأمر مهم .

لم لكن صوت مدير المدرسة مشجعًا، وبدأت الوساوس في رأسه تدور بسرعة لم يستطع تحملها، لا بد أن شيئًا ما حصل للولد، وإلا لماذا اتصل بي في هذه الساعة؟ ترك كل شيء مكانه ولبس ملابسه بسرعة، نادى زوجته وشرح لها الأمر، فقالت له:

- هل أحضر معك؟
- لا ضرورة لذلك، فلا نعرف ما المشكلة بعد، سأتصل بك.
- قلت لك يا أشرف ألف مرة أن تشتري هاتفًا لابننا فكنت ترفض بحجة أنه صغير.
- ليس هذا وقت عتاب يا صفاء، دعيني أذهب لأرى ما الأمر.
- حسنا مع السلامة، لا تنس أن تخبرني إن حصل لمحمد أي مكروه.
- حسنًا، ولا تنسي أنت اليوم موعدنا على العشاء مع جلال الفلسطيني في بيتهم الجديد.

خرج أشرف وهو مشغول البال، لماذا دعاني المدير الآن؟ لكن لو حصل لابني محمد مكروه سيقول لي، ولن يتأخر، فالأمريكيون ليسوا مثل العرب فلا يهمهم أن يخفوا الأمر عن الأهل.

في طريقه إلى المدرسة، كان يستعيد أشرف شريط حياته منذ كان طالبًا في المدرسة، في (حلمية الزيتون)، حتى أيامه الأخيرة.

كان كل حلمه في مصر، قبل أن يهاجر إلى الولايات المتحدة منذ أكثر من عشرين سنة، أن يحصل على تأشيرة (الفيزا) لدخول بلد الحرية، والدولار الأخضر، كانت سعادته لا توصف عندما قال له القنصل إنه سيمنحه الفيزا. زادت دقات قلبه في تلك الفترة بسرعة كبيرة لم يكن يدري إن كانت ضعفها أم أكثر قليلاً. قال في نفسه: لعل هذه

فرصتي التي لا تعوض، لذا علي أن أعرف كيف أستغلها، فقد لا تتكرر هذه الفرصة مرة أخرى.

بعد أيام كان أشرف على متن الطائرة المتجهة إلى نيويورك، وما إن ختم موظف المهاجرة جواز سفره حتى بدأ يرتل آيات من الذكر الحكيم، فقد وهبه الله كل ما يريد، وها هو يتجه نحو الباب الخارجي يبحث عن صديق له وعده أن ينتظره هناك.

لم يضيع أشرف يومًا واحدًا سدى، فمنذ بدأ عمله في أحد المحلات التجارية لم يعطل يومًا واحدًا، فقد كان يعمل سبعة أيام في الأسبوع، وبأجر زهيد لأنه يعمل بطريقة غير شرعية وبدون أوراق رسمية تسمح له بالعمل، أصحاب العمل حتى العرب منهم يعرفون كيف يستغلون العمال غير الشرعيين، وليس للعمال بديل آخر، فإن بلغوا عن ظروف عملهم السيئة فإن الترحيل ينتظرهم لأنه ممنوع عليهم العمل بأية وظيفة كانت.

لم يكن يهم أشرف مدى استغلال صاحب العمل له، فيكفي أنه منحه فرصة العمل، ولا يعتبر المبلغ الذي يتقاضاه أشرف من رب العمل استغلالاً لأنه يقارن ذلك بما يقبضه في مصر فيراه عاليًا جدًّا، وقد عرف كيف يبدأ بتوفير معظمه لأنه كان يقتسم الشقة مع عدة أشخاص، وعلى الرغم من إزعاجهم وأصواتهم بعد منتصف الليل إلا أنه تعوّد على النوم على الرغم من كل هذا الضجيج، وهو حال ليس بأسوأ من بيت أهله في مصر الذي كان يسكنه عشرة أشخاص بما فيهم أمه وأبيه، ولم يكن لديهم سوى حمام واحد، لذا كانوا كل صباح ينتظرون على الدور.

الفقر الذي عاشه أشرف خلق منه رجلاً مكافحًا، يعمل ليل نهار دون أن يشكو، أو يبدو عليه التعب، كان مصممًا على الوصول إلى الهدف الذي رسمه لنفسه، خطوة.. خطوة.

أهم ما كان يشغل بال أشرف هو توفير أكبر قدر من الفلوس، لذلك كان منذ يومه الأول يفكر ألف مرة قبل أن يخرج الدولار من جيبه، فأطلق عليه أصدقاؤه اسم البخيل، لأنه كان يرفض أن يشتري أي شيء للبيت، ويكتفي بتناول طعامه في مكان عمله. لم يشرب الكولا، لم يدخن، حتى إذا ما اتفق مع صديقة أمريكية تعرف إليها في العمل أن يخرج معها للتنزه، فقد كان يأخذها إلى الحديقة العامة، وعندما كانت تطلب منه شراء شيء يشربانه معًا كان يتذرع أنه نسي فلوسه في البيت، حتى ملت الفتاة واضطرت أن تشتري ذلك لهما بفلوسها، وأحيانًا كان يطلب منها أن تسلفه الفلوس ليشتري لها شيئًا، ولكنه لم يكن يعيد الفلوس لها، ويتظاهر بالنسيان، وعندما تذكره يختلق ألف عذر.

مرت السنوات مثل غمضة عين، ها هو أشرف الآن بعد عشرين سنة، واحد من رجال الأعمال العرب الكبار،

ربما أحد أهم رجل أعمال عربي في الولاية كلها، يجلس وراء مكتبه الفخم وسيجاره الفاخر لا يفارقه، جرس الهاتف لا يتوقف في مكتبه عن الرنين، وسكرتيراته الخمس لا يتوقفن عن العمل وتسجيل الملاحظات، والرد على الزبائن، وحجز المواعيد لمقابلة أشرف.

أصبح يهتم بشكله الخارجي وينتقي ملابسه من أفخم المحلات، كيف لا وهو يعقد الصفقات التجارية بملايين الدولارات على الهاتف وبدون توقيع أية أوراق رسمية، فقد أصبح حلم رجال الأعمال العرب الصغار أن يتعرفوا إلى أشرف، حتى لو لم يكن لهم أية مصلحة تجارية معه، فقد كانت معارفه على صعيد الولاية من مسؤولين في البلدية، والمحافظة كبيرة جدًا وتساهم في تسهيل الكثير من المعاملات الصعبة الضرورية في عالم التجارة والاقتصاد.

تزوج أشرف منذ عدة سنوات ولديه ثلاثة أولاد وبنت واحدة، كان أولاده من المتفوقين في المدرسة، خصوصًا أصغرهم محمد الذي كان الأول في مدرسته من سنته الأولى.

كان يقول: مهما نسيت فلن أنسى يوم مولد محمد، كان مولده فاتحة خير علي، فقد رسا علي في يوم مولده عطاء أكبر مشروع غير حياتي، وجعلني فيما بعد من أكبر رجال الأعمال في البلد، لذلك قال لزوجته:

– يا صفاء لقد قررت أن أسميه محمدًا.

فقالت له:

– عليه الصلاة والسلام، اسم خير، لكن يا أشرف، ألا ترى أن اسم محمد في كل مكان، لماذا لا نسميه عمادًا مثلاً؟

– محمد ولا شيء غير محمد، فعلى وجهه جاءنا الخير، كما طل الخير على العرب منذ ولد سيد الخلق.

– على بركة الله يا زوجي العزيز.

عرفه كل المسؤولين في المدرسة، فقد كان دائم التبرع لها، ولأنه أحد كبار رجال الأعمال فقد أصبح أشهر من نار على علم، لم يترك اجتماعًا لجمعية أو مؤسسة في منطقته إلا وشارك بها. كان يحضر اجتماع أولياء أمور الطلاب السنوي والفصلي ويشارك معهم في النقاش، وكان حديث مدير المدرسة في أحد الاجتماعات حيث شكره أمام جميع الحضور، كانت المفاجئة أن المدير قدم له باسم المدرسة درع المدرسة تقديرًا لجهوده في تشجيع العلم والثقافة.

وصل أشرف المدرسة، فأوقف سيارته، في موقف سيارات الزوار، ثم تابع طريقه إلى مكتب المدير، رحب به كل معلم رآه فهم يعرفونه حق معرفة، فقد أصبح أشرف اليوم أحد أبرز رجال الأعمال العرب البارزين، وعندما

وصل إلى مكتب المدير، كان المدير في انتظاره في الخارج، فقد وصله خبر وصوله من حارس المدرسة.

– أهلاً وسهلاً بك في مدرستك.

– أهلاً بك.

سلم كل منهما على الآخر بحرارة، ودخلا غرفة المكتب.

– هل أطلب لك قهوة؟

– لم لا، يسعدني شرب القهوة معك.

طلب المدير فنجانين من القهوة، ثم بدأ بالترحيب بالسيد أشرف عطا. فبادره أشرف على الفور:

– هل حصل للولد مكروه؟

– لقد قلت لك من قبل الولد بخير، نحن لم نستدعيك لكي نشغلك.

ضغط المدير على زر الجرس، فدخلت السكرتيرة، طلب منها أن تحضر محمد أشرف عطا من الصف، ليطمئن بنفسه على الولد.

– لا داعي سيد هاملتون، لم أقصد إزعاجك.

– حسناً، اذهبي واتركينا سندي.

فجأة جاءت سكرتيرة أخرى بالقهوة، قدم المدير القهوة لضيفه ثم بدأ بالحديث:

– لا أدري كيف أبدأ لك الحديث سيد عطا، لكنه أمر مهم.

– تفضل.

– أنا أعرف أن الوضع حساس بالنسبة إليك، وأعرف أنك من خيرة أهل البلد هنا وما قدمته للمدرسة لم يقدمه رجل آخر، وربما من حرصي عليك وعلى محمد قررت أن أبحث هذا الأمر معك.

– تفضل أكمل

– منذ أحداث الحادي عشر من أيلول فقد تغير كل شيء.

– تقصد سياسة الولايات المتحدة؟

– ليس هذا من اختصاصنا، ولكن.. المدرسة... أنت تعرف حساسية الطلاب، فمدرستنا تضم أكثر من ألف طالب.

– سيد هاملتون اشرح ما تريد قوله بوضوح.

– لن أخفي عليك أن الوضع بعد أحداث أيلول المؤسفة قد غير الناس الذين أصبحوا يكرهون أو لا يرتاحون لبعض الأسماء التي أصبحت تمثل لهم أو تذكرهم بالإرهاب مثل بن لادن مثلاً، أو طالبان،...

– حسنا أتفهم ذلك.

– أنت تعلم أن أحد الذين نفذوا هذا العمل الإرهابي هو مصري واسمه محمد عطا و...

فقاطعة أشرف قائلاً:

– لكن ابني محمدًا صغير، ولا أحد يمكنه أن يشك أنه الذي نفذ عملاً إرهابيًّا، فهو لم يتم التاسعة بعد.

– أعرف ذلك يا سيد عطا، ولكن الأهالي قدموا لنا احتجاجات لأن طالبًا في مدرستهم يدعى محمد عطا، وأصبحوا يوصون أبناءهم بالابتعاد عنه.

– أإلى هذا الحد؟

– سيد عطا، اسم محمد عطا مثير للنفس ويذكر الناس بالجريمة النكراء. أعرف أنك تستنكرها وتدينها، ولكن لو كنت مكانهم فسوف يتغير موقفك. فكر معي الآن بعد أن يكبر ابنك كيف سينجز معاملاته وكيف سيتعاون مع زملائه في (الهاي سكول). لن يقول لهم أنا محمد أشرف عطا، وأنا لست من نفذ ذلك العمل، فهم يعرفون ذلك، ولكن الاسم قد يجلب له المتاعب.

– وهل على أن أنقله إلى مدرسة أخرى؟

– هذا لن يحل المشكلة.

– إذًا تريدني أن أغير اسمه؟

– إن لم يزعجك ذلك.

– لكنه اسم محبب لنفسي.

– أعرف ذلك، فهو اسم نبيكم، وهناك أشخاص كثيرون يسمون أولادهم محمد، ولكن محمد عطا أصبح اسمًا مختلفًا، إنه ليس محمد إنه محمد عطا. إنه اسم الذي فجر إحدى الطائرات في أحد البرجين، لم لا تغير اسم العائلة ليكون أشرف بدلاً من عطا؟

– لقد حيرتني في اقتراحك هذا سيد هاملتون.

– أكرر لك أنه ليس سوى اقتراح مني، وأنت غير مجبر على ذلك، ولكن فكر في الأمر أن الاسم يثير الناس، وابنك من بين الطلاب الذين يعرفون من أهاليهم عن محمد عطا الإرهابي، لذلك عندما يتشاجر أحدهم معه فسوف يعايره باسمه ويصفه بالإرهابي. الآباء يطلبون إبعاد ابنك عن أبنائهم، وبعضهم هدد أن ينقل ابنه إلى مدرسة أخرى.

– وهل أثر ذلك على المدرسين؟

– المدرسون يعرفون أنه طفل بريء، ولكنهم يكرهون اسم محمد عطا ولا يحبون أن ينادوه باسمه الحقيقي، وبعضهم أصبح يناديه باسم (مو) اختصارا لاسم محمد، وحد المدرسين قال لي إنه يصاب بالذعر كلما قرأ اسم ابنك على ورقة الامتحانات. ليس مطلوبًا منك أن تتخذ قرارًا الآن، ولكني أنصحك بالتفكير ودراسة الموضوع.

– حسنًا، سأفكر بما هو أفضل.

لم يرد أشرف أن يكون رده جافًّا على المدير، فابنه لا يزال في المدرسة، وربما سيبقى فيها، وما يطرحه فيه بعض الصحة، فما العمل؟ خرج من عند المدير وهو يحمل سؤالاً إلى زوجته لعلها تساعده في الإجابة عليه.

(آب، 2006)

مقصلة الدولار

اليوم الخميس. لدي موعد مهم في وسط المدينة.، علي الذهاب إلى هناك مبكرًا. يا له من يوم مزعج، فأنا واحد من الذين يكرهون الذهاب إلى وسط مدينة شيكاغو على الرغم من أن الكثيرين يسعدون بذلك ليستمتعوا بمشاهدة أبراجها العالية، والتمتع ببحيرتها الكبيرة؛ بحيرة ميتشغان المليئة بقوارب الأغنياء الذين لا يستخدمونها ربما سوى عدة مرات طوال السنة.

لن أذهب إلى وسط المدينة بالسيارة، ففي الصباح الباكر تكون الشوارع والطرق السريعة مزدحمة بالسيارات والحافلات، وقد أصل هناك بعد ساعتين، والأهم من كل ذلك سأكون على أعصابي طيلة المدة التي تستغرقها الرحلة إلى وسط المدينة، فالسائقون يزاحمون بعضهم بعضًا، والازدحام لا يترك لك وقتًا للراحة، وعليك أن تكون متنبهًا لكل حركة، وعلى رجلك اليمنى أن تكون مثل آلة أوتوماتيكية تدوس على الفرامل ثم تعود فورًا لتدوس على البنزين وهكذا.

وإذا نجحت ووصلت بسهولة، فعلي البحث عن مكان لإيقاف السيارة، وعادة فإن معظم الأماكن تكون مليئة، هذا عدا عن أجرة إيقاف السيارة والتي تبلغ 22 دولارًا ولو لساعة واحدة. إنهم لصوص، لا أستطيع أن أجد تسمية لهذا الاستغلال الفاحش سوى أنهم لصوص.

كثيرًا ما أتساءل: لماذا تصر البلدية على أن تحافظ على هذا الازدحام في وسط المدينة؟ أليس بإمكانهم أن ينقلوا الكثير من المؤسسات والشركات الكبيرة إلى أماكن أبعد وأقل ازدحاما؟
يبدو أنني غبي لا أعرف بأن أي تغيير في طابع وسط المدينة يعني هبوط سعر العقارات هناك، وهو ما يحاربه أصحاب النفوذ، وأصحاب الملايين، هل قلت الملايين؟ أقصد البلايين.

لبست بعض ما عندي، وتوجهت على الفور إلى محطة القطار القريبة من بيتنا. مدة السفر إلى وسط المدينة حوالي 35 دقيقة، وها أنا الآن جالس أمتع نظري بشوارع المدينة هادئ البال، وغير متوتر الأعصاب.

وصل القطار، فنزل المئات منه مرة واحدة. يا إلهي، كل هؤلاء يستخدمون القطار، وعلى الرغم من ذلك، تجد الشوارع مزدحمة بحركة المرور.

تابعت سيري على الفور لأصل إلى هدفي. لحظات كنت خلالها أسير في شارع (آدمز). قطعت الجسر وسرت باتجاه الشرق. كنت أفكر بلقاء العمل الذي سيتم بعد دقائق معدودة. فجأة مجموعة من الفتيات الجميلات يقفن على الرصيف يتبادلن أطراف الحديث، وكانت إحداهن تتفوق على زميلاتها بجمالها، أو هكذا خيل إلي، طويلة القامة، شعرها يتدلى على كتفيها حتى خصرها الرفيع، أما وجهها فكان آية في الجمال، سبحان خالقها! تخيلت وأنا أقترب منها أنني سأكتب بها قصيدة شعر، فلحظات الإلهام نادرة. نظرت إلى قلمي ودفتري الصغير في جيب قميصي، وقبل أن أمد يدي إليه فوجئت بها تنظر نحوي وتصوب شعاع عينيها باتجاه عينيّ اللتين لا تقويان على مقاومة كتلك.

أصحيح إنها تنظر إلي؟

نظرت إلى جانبي لأرى إن كانت تلك النظرات تقصد غيري فلم أر أحدا يسير بجانبي، أو حتى يتطلع إليها. تمهلت في سيري لأتأكد مما أرى، فبدأت بالسير باتجاهي.

يا إلهي، هل تعرفني هذه الحسناء؟ كأنني رأيتها من قبل، هل هي...؟ لا، لا أظن.

ازدادت اقترابًا، فكل منا يسير باتجاه الآخر، وكلما اقتربت توسعت ابتسامتها، كشمس الصباح التي تزيد إشراقًا كلما اقترب الصباح.

ربما تمزح معي. آخ، تذكرت، يبدو أنها الكاميرا الخفية يريدون أن يسجلوا ردود فعلي وأنا أقترب من امرأة حسناء، هل علي أن أخفي مشاعري، أم أترك للكاميرا أن تسجلها؟

لكن لماذا اختاروني أنا من بين هذا الحشد الكبير من المارة؟! بسرعة البرق التفت إلى الخلف لأتأكد أن أحدًا لا يصورني، فلم ألمح شيئًا يقلقه ما يحدث بيننا.

اقتربنا من بعض حتى جاء وجهي بوجهها. ابتسمت، وبدأت تسير بجانبي تضرب كتفها بكتفي. استدارت نحوي ثم قالت:

- هاي.

قلت لها:

- هلو، كيف حالك؟

ابتسمت وسارت تتغندر مثل بطة تتمايل يمينًا ويسارًا بطريقة مثيرة لرجل مثلي.

لا أصدق لماذا اختارتني من بين كل الناس وأنا رجل غزا المشيب رأسه حتى لم يترك له شعرة سوداء في شعره؟ ألم تر الشباب يملأون الشارع لتحتك بهم؟ لا بد أن سرًّا في الأمر!

فجأة استدرت إليها لأسألها:
– هل تعرفينني؟
نظرت إلي بعد أن توارت ابتسامتها، ثم عادت أدراجها إلى الخلف.

كان سؤالي جوابًا لما يدور في ذهنها. استدرت إلى الخلف لأشاهدها تتمايل من جديد كأنها لوحة جميلة فقدت أحد ألوانها.

اقتربت من رجل آخر، وبدأت الحديث معه. ضحك لها وأكملا السير خلفي.

تساءلت محتارًا وأنا أسير إلى موعدي المنتظر:
لماذا يذبح كل هذا الجمال على مقصلة الدولار الأخضر؟

(أيار، 2007)

ممنوع الكلام في الطائرة

وصل نديم مع زوجته هالة إلى مطار العاصمة واشنطن قبل موعد إقلاع الطائرة المتجهة إلى (أورلندو–فلوريدا) بساعتين، حيث قرّرا قضاء نهاية الأسبوع معًا هناك ليستريحا من عناء العمل ومشاغل الأطفال مستغلين عطلة المدارس واستعداد جدتهما للاعتناء بهما خلال غياب والديهما.

بعد انتهاء كل مراسم حجز المقاعد، توجها إلى الطائرة، وانتظرا مع المنتظرين لحظة فتح باب الطائرة، ودخول المسافرين.

ظل نديم يسير إلى مؤخرة الطائرة حتى وصل إلى مقعديهما، نظرت زوجته وقالت له:

– ألم تجد سوى هذين المقعدين؟

– لم يكن سواهما لنجلس معًا، فالمقاعد الأخرى متناثرة، وستكونين في مكان وأنا في آخر.

– ولكنه بجانب الحمام، والناس داخلة خارجة من الحمام.

– على الأقل لن يكون خلفنا أحد ولا بجانبنا أحد، مقعدان خاصان.

– لعلهما الأكثر أمانًا؟!

– لا، ليس الأكثر أمانًا، فالأكثر أمانًا هي المقاعد التي بجانب الجناح.

– ألا تعتقد أنه بإمكاننا تغيير المقاعد مع الجالسين هناك؟

– هالة، المكان هنا أكثر راحة صدقيني.

– حسنًا، أرجو ذلك.

رفع نديم حقيبة ملابسهما ووضعها في الرف العلوي فوق رأسيهما، وسمح لزوجته الجلوس محاذية للنافذة فيما جلس هو بجانبها. وضع يده فوق يدها وقال لها:

– أمامنا ساعتان حتى نصل إلى هناك.

فقالت له:

– فرصة لتنام وتعوض سهر الأمس.

– سيكون نومًا طويلاً حبيبتي، الوداع.

ثم قبلها وأسند رأسه إلى الخلف بعد أن ربط حزام الأمان مرات كأنه لن يراها بعد تلك الساعة.

تأخرت الطائرة عن موعد الإقلاع، وأعلن ربانها أن خللاً طرأ عليها، وطالب الجميع الجلوس في كراسيهم حتى يتم إصلاح الخلل.

لحظات وقف رجل طويل القامة يلبس بذلة زرقاء اللون يرفع شارة محقق من دائرة التحقيق يقف بجانبه ويقول لهما:

– نريد الحديث معكما على انفراد.

لم يكن نديم قد نام بعد، فتح عينيه وسأله:

– هل قلت إنك تريد الحديث معنا على انفراد؟

– إذا سمحت.

– لماذا والطائرة على وشك الإقلاع؟

– أمر مهم، أرجو ألا تتعبني، هيا اتبعاني بهدوء ودون ضجيج.

وقف مع زوجته ولحقا به، فيما تقدم شخص آخر قام بتفتيش مكان جلوسهما وما حولهما، ثم حمل حقيبتيهما من مكانها ولحق بهما إلى المكتب في المطار.

نظر نديم إلى المسؤول الثاني الذي يحمل الحقيبة فسأله:
– لماذا أحضرت الحقيبة؟ هل ستترك الطائرة تغادر بدوننا؟!
فقال له:
– لا تقلق، ستغادر في الوقت المناسب.

جلس نديم وزوجته على كرسيين متجاورين فيما جمع أحدهما بطاقتيهما وتذكرتيهما وعاد بعد لحظات يحمل أوراقًا كاملة لهما لعلها سيرة حياتهما هناك.

ولد نديم وزوجته في الولايات المتحدة، وتعلما في مدارسها وجامعاتها، ولهجتهما أمريكية صرفة لا يميزها عن أي أمريكي أي شيء.
سأله نديم:
– لماذا نحن هنا؟
– هناك شكوى بأنكما ستفجران الطائرة.
– نفجر الطائرة؟! لماذا؟ هل جننا؟!
– لماذا اخترتما آخر كرسيين في الطائرة؟
– لأنه لم يكن ثمة كرسيين متجاورين سواهما.
– وما قصة جناح الطائرة؟
– زوجتي سألتني عن أكثر الأماكن أمانًا في الطائرة، فقلت لها بجانب الجناح.
– هل لك أولاد؟
– ولد وبنت.
– لماذا لم تحضرهما معك؟
– لكي نقضي معا إجازة ليومين بدون الأولاد.
نظر إليهما ثم قال:
– نحن مضطرون لتفتيشكما.

أخذ أحدهما نديم إلى غرفة خاصة، فيما حضرت إحدى المسؤولات واقتادت زوجته إلى غرفة أخرى. تم تجريد كل منهما من ملابسه، وفحصهما ثم فحص جسميهما بشكل أثار نديم فقال غاضبًا:

– ما هذه الإهانات؟ كل هذا لأنني من أصل عربي ولوني يوحي أنني لست من أصول أوروبية؟

– نحن نقوم بواجبنا.

– لو كنت من أصل أوروبي واسمي (مايك) وشعري أشقر لم أتعرض لسؤال واحد.

لم يرد المسؤول وتابع عمله.

بعد ذلك فتشوا حقيبتهما، ثم أخذوا بصمات أصابعهما، وتم عرضها على الكمبيوتر، وبعد لحظات جاء الجواب بأن لا شيء يستدعي الشبهة، فسمح لهما الجلوس في غرفة الانتظار.

بعد نصف ساعة من الانتظار دخل عليهما مسؤول آخر أبيض الشعر، قال لهما باسمًا:

– أعتذر أننا أخرناكما عن السفر، لكنها إجراءات أمنية يجب أن نقوم بها، يمكنكما المغادرة.

– هكذا، بعد كل هذه الإهانة دون سبب؟

– سيد نديم. عملنا ليس سهلاً، وقد حرصنا على أن نقوم بواجبنا دون أن نسبب إزعاجًا لكما. لقد اتصل بنا ربان الطائرة وقال إن بعض الركاب سمعوكما تتحدثان عن جناح الطائرة، وإنك ستنام نومًا طويلاً، وقد هددوا بمغادرة الطائرة إن بقيتما على متنها، لهذا كان علينا التأكد من أن الأمور تسير بشكل سليم.

– وكيف سنسافر الآن بعد أن صرنا مشبوهين لدى مكتب الشركة؟

هز رأسه ثم نادى أحد المسؤولين وقال له آمرًا:

– خذ السيد نديم وزوجته إلى شركة دلتا، وغير لهما الحجز على أول رحلة قادمة إلى (أورلندو) بعد أن تشرح للمكتب أننا سبب تأخرهما وأنهما ليسا في موضع شبهة. إذا واجهتك صعوبة اتصل بي.

– أمرك سيدي.

بعد انتهاء حجز المقاعد في الرحلة التالية، ذهب نديم مع زوجته إلى أحد المطاعم للاستراحة، فموعد الرحلة القادمة بعد ثلاث ساعات.

جلس متنهدًا كأنه ارتاح من حمل ثقيل على كتفه، قال لها:

– أرأيت العنصرية؟ الركاب الذين كانوا يبتسمون لنا، ويرحبون بنا، كانت قلوبهم مليئة بالحقد والكره شكوا بنا. الأغبياء! هل يمكن لشخص يريد تفجير الطائرة أن يأتي مع زوجته ويخاطبها بالإنكليزية أمام الجميع؟

– الانتماء إلى هذا البلد لم يعد يعتمد على حبك لها وشعورك بالانتماء إليها، ولكن يعتمد على لون عينيك وشعرك، والبلد التي جاء منها أجدادنا.

– يبدو من الآن وصاعدًا أن علينا عدم التحدث معا داخل الطائرة، والاكتفاء بالإشارة.

– أخاف أن يعدوا أية إشارة تصدر عن أحدنا بأنها إشارة للهجوم أو تنفيذ العمل الإرهابي المزعوم؟!

ممنوع تأييد السيد

دخل كمال إلى زنزانته بعد أن أعياه التحقيق المكثف الذي تعرض له طوال ساعات في وسط مدينة شيكاغو الأمريكية من قبل المحققين الفدراليين، وآخرين لم يعرفهم، ولم يتجرأ أن يسألهم عن هويتهم، فالتهم التي وجهت إليه عقدت لسانه، وأخافته، ووضعته في دوامة لا يعرف متى بدأت ولا متى ستنتهي.

جلس على الأرض يفكر بالتهم الموجهة إليه والتي لا يعرف من لفقها له؛ "إرهاب، تخطيط لهجمات إرهابية، تحريض على الكراهية، تأييد السيد". يا إلهي، من أين جاؤوا بهذه التهم؟ ما الذي يريدونه؟ هل أخطأوا بيني وبين شخص آخر؟ هل وشى بي أحدهم؟ لا بد من محام قوي يواجه هذه الاتهامات.

لم تطل إقامته في زنزانته حتى أعادوه إلى التحقيق، هذه المرة قالوا له:
– اسمع يا كمال، إن أحببت أن تخفف عنك الحكم فعليك التعامل معنا وتدلنا على كل المحرضين الذين تعرفهم.
– لكني لا أعرف شيئًا عن التهم التي توجهونها.
– هذا آخر عرض نوجهه إليك.
– أنا أريد محام. أريد الاتصال بزوجتي.
لم يعترض المحققون، رفعوا السماعة واتصلوا بزوجته وأخبروها أن زوجها يحتاج إلى محام.

ذهبت زوجته سميحة مع بعض أصدقائه تبحث عن محام مناسب حتى وجدوا محاميًا يقبل الترافع عنه.

طلب منهم خمسة آلاف دولار لزيارته ومعرفة التهم الموجهة له، وبعد ذلك يحدد التكاليف لقضيته التي لا تقل عن مائة ألف دولار!!

بعد يومين كان المحامي في زيارة لكمال في سجنه. لم يخف المحامي مخاوف كمال، ولكنه زادها عندما قال له:
– إنهم يوجهون لك تهمه الإرهاب، وهذا تهمة حكمها عال، ولكنا لا نستطيع الدفاع قبل أن يقدموا لنا بعض

التفاصيل. إنهم يتهمونك إنك تؤيد الشيخ حسن نصر الله من لبنان، وتشكل مجموعات لتقديم الدعم له. وربما المساعدة في التخطيط لأعمال إرهابية.

– هذا كذب، كذب، لا أصدق هذه التهم.

– اهدأ، لا تنفعل فالانفعال لا يفيدك. علينا التفكير في التهم وتفاصيلها ونعد دفاعنا عليها.

صمت ثم تابع:

– المشكلة أن هيئه المحلفين هنا لن تصدقك، وحسب خبرتي ما إن يسمعوا تهمة إرهاب وعرب ومسلمين، حتى يدينونك فورًا.

– أين العدالة؟

– وهل تصدق تلك الخرافات؟ عند المحققين هنا لا يوجد عدالة.

– هل تعتقد أن أحدهم وشى بي لتحصيل بطاقة إقامة وقدم لهم معلومات كاذبة؟

– لا أعتقد فهم يتحدثون بلهجة الواثق من مصادر معلوماتهم.

– لكنها معلومات كاذبة.

– سنرى في الأسابيع القادمة.

– وهل سأبقى بالسجن حتى المحاكمة؟

– إنهم يرفضون الإفراج عنك بالكفالة، لكننا سنقدم أوراقك للقاضي وسنرى ما يقول.

الآن عرف كمال لماذا صادروا جهاز الحاسوب لديه، وجميع كتبه باللغة العربية، والكثير من اسطوانات الأغاني.

كان متوتر الأعصاب عندما جاء السجان ليأخذه لزيارة بعض الأهل، كانت زوجته معهم. طلبوا منهم أن يتحدثوا بالإنجليزية حتى يفهموا عليه.

كان مسرورًا لزيارة زوجته وأصدقائه فلم يرهم منذ أسبوع، قال لهم:

– إنهم يتهمونني بالإرهاب. أنا أنكر التهمة وليس لي علاقة بكل ما يقولونه.

حاولوا تهدئته، وتثبيت عزيمته.

لم تطل المحاكمة، فقد أدانته هيئة المحلفين بتهمتين فقط: تأييد السيد حسن نصر الله، وتشكيل مجموعات تؤيده وتقدم له الدعم الإعلامي. أما التهم الأخرى فقد أكدوا براءته منها فحكمه القاضي عشر سنوات بالسجن.

كان الإدعاء العام قد استند في اتهامه إلى تقرير من المدرسة التي يتعلم فيها ابنه الأكبر سعيد (12 سنة)، والتي أشارت فيها إحدى المدرّسات إلى أن سعيد يتحدث عن السيد حسن، ويقول للطلاب والمعلمين إن أباه يؤيده.

لم يصدق كمال ما يسمع، عشر سنوات لأنه يؤيد حسن نصر الله؟

– سعيد، سعيد هو السبب، آخ منك يا سعيد، تذهب وتقول للطلاب عني؟

في ذلك اليوم كان السيد حسن يلقي خطابه عبر شاشة الجزيرة، وكان كمال يستمع إلى الخطاب باهتمام منفعلاً:

– هكذا هم الزعماء. كل التحية لك...، صحيح... مائة بالمائة.

كان ابنه سعيد يجلس وحده معه فيما انشغل بقية إخوته في ألعابهم، وكانت أمه في المطبخ تحضر العشاء. سأله سعيد:

– بابا من هذا؟

– إنه الزعيم.

– أهو زعيمنا؟

– إنه زعيم الأمة كلها.

– هل تحبه؟

– كلنا نحبه.

– هل هو من فلسطين؟

– إنه من كل البلدان العربية.

– لماذا يضع العمامة على رأسه؟ أهو شيخ؟

– سعيد دعني أتابع الخطاب ويكفيك أسئلة. هذه العمامة لرجال الدين. نعم. اتركني أستمع، عندما تكبر ستعرف عنه أكثر.

على الفور أخبر كمال محامية بضرورة الاستئناف، ونقل هو إلى أحد السجون في (تكساس) مقيد اليدين والرجلين والوسط. كان مكروهًا من السجانين والسجناء، وأمضى حوالي السنة وهو يعاني من العنصرية والاعتداءات المتكررة حتى أنه فكر يومًا بالانتحار.

زارته زوجته مرة واحدة فقد كانت المسافة بعيدة وتكلف الكثير.

كان المدعي العام الفدرالي الجديد قد استلم قضيته، وطالب من الادعاء بضرورة إعادة دراسة القضية من جديد، وقد وظّف بعض المتخصصين العرب في الترجمة من اللغة العربية، وبالاطلاع على أوراق كل المجموعات التي اتهم كمال بالانتماء إليها اقتنع المدعي العام الجديد أن كمال لم يكن يشكل خطرًا على الأمن، وأنه مارس التحريض وتأييد الزعيم أمام ابنه فقط.

في جلسة الاستئناف لم يقرر القاضي براءة المتهم، ولكنه اكتفى بمدة سجنه، وقرر إبقاء فرض المراقبة عليه لمدة 3 سنوات.

كان كمال سعيدًا بالإفراج عنه، ولكنه كان حزينًا لأن القاضي لم يبرئه من التهمة نهائيًّا.

قال له المحامي:

– القاضي لا يريدك أن تقاضي الحكومة فاصدر قراره على هذا النحو.

– لكنه ظلم!

– يا كمال، احمد الله أنك خرجت سالمًا من بين أيديهم.

– لكني الآن سأواجه المشاكل بعد أن نظر إلي الناس عبر شاشات التلفاز بأنني أؤيد السيد حسن. كيف سأعيش؟ أين سأشتغل؟ أي خطر سيتشكل هذا على أولادي؟

– هل تريد نصيحة؟

– وما هي؟

– عد إلى بلادك الأصلية ولا تبقى هنا.

هز كمال رأسه قائلاً:

– ترى هل سأجد عملاً هناك؟ أم هل سأضاف إلى سجل آلاف العاطلين عن العمل؟

صمت ثم تمتم في سره: شيء وحيد فقط يمكنني أن أفعله بحرية هناك، أن (أؤيد السيد حسن وقتما أشاء، وكيفما أشاء).

(تموز، 2008)

من أُرِغِن إلى السعودية

قررت هذا العام أن أقضي شهر رمضان المبارك في السعودية لدى أهلي وأقاربي في بلدي الذي ولدت، وعشت فيه طفولتي، فرمضان في أمريكا ليس له طعم ولا نكهة، وهي فرصة للراحة والعبادة، فقد قررت أن أبقى هناك حتى عيد الأضحى المبارك.

لأول مرة أنجح في إقناع حفيدتي (سندي) بمصاحبتي بتلك الرحلة، لعلي أستطيع أن أنير قلبها بالإسلام إذ لا

تزال مترددة لم تحسم أمرها بعد خصوصًا وأنها تعيش مع صديقها (جمي) الذي يحرضها دائمًا علي.

لا أعرف إن كانت (سندي) قد وافقت على مرافقتي حبًّا للسفر مع جدتها أم لأنها تطمع أن ترث بعض أموالها بعد أن تحظى بمزيد من حبها، فأنا الآن على مشارف 71 عامًا لا يفصلني عن الموت سوى شعرة قصيرة.

منذ خمس سنوات وأنا عازمة على التقاعد عن العمل، والانتقال إلى العيش في الإمارات ما تبقى من عمري، فلم أعد أشعر بالراحة في الولايات المتحدة على الرغم من أنني عشت فيها حوالي 50 عامًا ولي فيها أسرة كبيرة من الأولاد والأحفاد.

كل عام أقول بأنني سأتقاعد في العام الذي يليه، وها هي الأعوام تمر دون أن أصل إلى قرار حاسم. لا أدري إن كانت المحلات التجارية التي أديرها هنا هي السبب، أم أن عدم رغبتي بترك الأولاد (على الرغم من أنهم يعيشون بعيدًا عني)، أم لأنني تعودت على التردد ولم أعد حاسمة في اتخاذ القرار؟ لا ينقصني للانتقال إلى الإمارات أي شيء، فلي هناك بيت واسع يطل على البحر ثمنه أكثر من مليون دولار.

حفيدتي (سندي) الأقرب إلي كانت تسألني دائمًا:
– لماذا تريدين التقاعد في الإمارات؟
– لأنني لم أعد أشعر بالراحة في هذه البلاد.
– ولكنك عشت فيها أكثر من ما عشت في السعودية أو الإمارات.
– أليس غريبًا بعد كل هذه السنين أن أشعر بالغربة هنا؟ إنها الغربة عن المجتمع.
– لكنك يا جدتي تلبسين الحجاب وملابس طويلة على غير عادة الناس هنا. قال لي جدي قبل وفاته إنك لم تكوني كذلك عندما جئت معه من فرنسا.

لا أعرف ماذا أقول لها؟ كيف أفسر لها الأمور؟ أحيانًا مشاعر الكبار لن يفهمها الصغار خصوصًا إذا عاشوا وتربوا في ثقافة أخرى. لا أدري من المسؤول عن ذلك، هل هو أنا أم هو؟ أم الحب؟ أم أن قدرنا الذي جرنا إلى تلك المواقف؟
عندما أنظر إلى النتيجة أشعر أن البداية كانت غامضة يشوبها التسرع، وعندما أتذكر بدايتنا الحلوة أشعر أن النهاية ما كان يجب أن تكون هكذا.

خيط مفقود بحثت عنه فلم أجده. لا أعرف بعد هذا العمر الطويل، هل يستطيع الحب أن يصمد وحده في الطيران؟ أم أنه مثل أي طائر قد يتساقط ريشه فلا يقوى على متابعة التحليق في الفضاء فيسقط على الأرض

ليصطاده الأطفال بسهولة؟ هل تخدع القلوب أصحابها؟

هل مات زمن الحب؟ أم أننا في طيش الشباب لا نميز بين الحب الحقيقي والمشاعر الآنية المتأججة المحكومة بالجسد، ومشاعر الجنس، ونظرات العيون، لا نبحث عن صفاء الروح، ولا عن الأفكار؟

عندما أرسلني والداي (رحمهما الله) بعد إلحاح للدراسة في فرنسا كانا خائفين علي هناك، وأوصياني أن أهتم بدراستي لأكون مثالاً للفتاة السعودية، وأن لا أخالط الشباب أو أقع في شباكهم.

التحقت في كلية الفنون في باريس، فقد كنت أطمح أن أكون فنانة تشكيلية لأنني كنت أعشق الرسم والألوان. هناك تعرفت إلى طالب فرنسي يدعى (فرانسوا)، وشعرت بميل عاطفي تجاهه فنسيت كل نصائح والدي وتوجيهات أمي وتزوجنا سرًّا بعد عدة شهور، وعندما أخبرت والدي جن جنونهما، وقررا الحضور إلى فرنسا لإنهاء ذلك الزواج بالقوة، فهربت مع (فرانسوا) إلى الولايات المتحدة، واخترنا ولاية بعيدة، من النادر أن تجد عربيًّا يعيش فيها، إنها ولاية (أرِغِن) التي تقع على المحيط الهادئ شمال ولاية كاليفورنيا وجنوب ولاية واشنطن.

كافحنا طويلاً أنا و(فرنسوا)، وأسسنا عائلة، فقد أنجبت أربعة أطفال؛ ولدين وبنتين، أصبحوا الآن آباءً، بل بعضهم أصبح جدًّا. الابن الأصغر انتقل إلى العيش في كاليفورنيا، والبنت الكبرى تعيش في تكساس، أما البنت الصغرى فتعيش في الولاية نفسها مع زوجها وأسرتها، ولكن ابني الأكبر يقبع الآن في السجن، إذ يقضي فترة عقوبة مدتها عشر سنوات بتهمة الاتجار بالمخدرات وقد تركته زوجته، وأنا التي أتابع شؤون بناته. إحدى بناته اتجهت للعمل في مجال عرض الأزياء في كاليفورنيا، أما (سندي) الأكبر سنًّا فهي تعيش مع صديقها، وهي التي سترافقني إلى السعودية، ولا أعلم أين حطت الأقدار بالثالثة؟!

كنت مجنونة عندما اعتقلته السلطات الأمريكية فسألته:

– لماذا فعلت ذلك يا (مايك)؟ أينقصك فلوس؟

هز رأسه قائلاً:

– لا يا أمي، ولكن يبدو أن كثرة الفلوس أحيانًا تدفع صاحبها للتفكير في الاتجاه الخاطئ.

حاولت معه كثيرًا، ولكنه لم يتغير.

علاقتي مع (فرانسوا) فترت بعد عشر سنوات من الزواج. نار الحب التي جمعت بيننا خمدت مثل جمرة نار تحولت إلى رماد. بدأت المشاكل تزداد يومًا بعد يوم. لا أدري إن كانت نظرتنا إلى الأولاد وتربيتهم هي السبب، فقررنا الانفصال بعد 15 سنة زواج، وقد عاش الأولاد عنده وكانوا يزورونني كل أسبوع، وقد عاشوا في جو

أبوين متناقضين في التربية والتعليم. تأثير (فرانسوا) بلا شك كان الأكبر خصوصًا لأنه لا يختلف عن تأثير المدرسة والمجتمع، فكانت أسرتي مزيجًا من الشرق والغرب.

ابني الأصغر كان كاثوليكيًّا، أما الأكبر على الرغم من أنه تجاوز الخمسين من عمره، فلم يقرر بعد أي دين سيختار؛ يقول لي إنه مسلم ويقول لأبيه إنه مسيحي. أما البنات فكانوا أقرب إلي لأنهن كن يترددن علي، ولكنهن لا يطبقن الشريعة الإسلامية بشيء سوى الشهادتين واعتبار نفسيهما مسلمات. أما الأحفاد فقد تنصّر معظمهم، ومن اختار دين جدته فقد اختارها شكلاً لا أكثر، مثل حفيدتي (سندي) التي تعد نفسها مسلمة وتعيش عند صديقها.

منذ مجيئنا إلى الولايات المتحدة أنا و(فرنسوا) جاهدنا لتأسيس أنفسنا، ونجحنا وكوّنا شركة كبيرة لبيع الجلود والملابس الجلدية التي كنا نستوردها من باكستان، وعندما انفصلنا تابع كل منا تجارته لوحده، واستطعت على الرغم من الانفصال النجاح، وقد أعدت علاقتي مع أهلي بالتدريج الذين وافقوا على ذلك بعد انفصالي عن (فرانسوا)، ولكنهم ظلوا ينظرون لي نظرة الذي وقع في الخطيئة. لعل ما خفف حملة الكره علي أنني عشت بعيدًا عنهم، فكانوا يقولون للناس إنني تزوجت فرنسيًّا مسلمًا، ليداروا فضيحة ابنتهم.

منذ عودة علاقتي مع أهلي زرتهم أكثر من مرة حتى وفاة أبي وأمي قبل عشر سنوات. مات الاثنان في عام واحد، فكان عامًا كله حزن بالنسبة إلي. أعرف أنني لم أدخل السعادة في قلبيهما بعد زواجي من (فرانسوا)، لذلك كنت الابنة العاقة لهما. بعض الأقارب لا يقبلون التعرف إلي حتى الآن، ويعدون ما فعلته بأنه هروب مع عشيق فرنسي، ويصفون الأولاد بأنهم أولاد زانية.

زرت ابني البكر في سجنه خلال 8 سنوات مرة واحدة، ففي أثناء زيارتي له قبل سبع سنوات في السجن الفدرالي في مدينة (ليفنوورث) في ولاية (كانزاس)، كان السجناء ينظرون إليه نظرة غريبة، وكلهم يتهامسون علينا، وعندما شعر بذلك فقد شعر بالإحراج. غضب وقال لهم بلهجة حادة:

– ماذا تريدون منا؟ لماذا تنظرون إلينا نظرة غريبة؟

سأله أحد السجناء الذي يعرفه:

– من هذه يا (مايك)؟

– إنها أمي، ألم أقل لكم سابقًا؟ أنا نصف عربي ونصف فرنسي، أمي سعودية.

– أمك سعودية!! من بلد البترول؟

– من بلد البترول، ولكنها لا تملك بترولاً.

فرد آخر:

– من بلد بن لادن؟

لم يتمالك (مايك) الوضع، فاتفق معي أن تكون تلك زيارتي الأخيرة إلى السجن. لعل لبسي الحجاب كان مثيرًا لهم، فأنا منذ عشرين سنة بدأت بلبس الحجاب، وكان لباسي أكثر احتشامًا من قبل. لا أدري لماذا هذا الهدى الذي نزل علي مرة واحدة؟!

على الرغم من علاقتي الحسنة مع أولادي الذين يشبهونني أكثر من أبيهم، أعترف أنني فشلت في أن أربيهم حسبما أتمنى، وبعد أن كبرت وبلغت من الكبر عتيًّا أتساءل: هل حققت حلمي الذي كنت أتمناه في هذه الحياة؟ أم أن أحلامي وأنا صبية كانت مجرد أوهام؟ لماذا لم يصمد حبي مع (فرانسوا) وانهار بسرعة مثلما تنهار بناية آيلة للسقوط؟ ما الذي يشدني إلى السعودية بعد هذا العمر الطويل لأقضي هناك فترة شهر رمضان المبارك وحتى عيد الأضحى؟ لماذا هذا الانقسام في الحنين إلى الأوطان؟

لم أتردد في الطلب بمنح أولادي الجنسية السعودية، وقد نجحت في الحصول على جوازات سفر سعودية لهم، وكان حاول أبوهم منحهم الجنسية الفرنسية فيما بعد، ولكن السفارة الفرنسية رفضت ذلك لأن القانون لا يسمح بثلاث جنسيات.

موعد السفر يقترب ورمضان على الأبواب. إنها فرصة للتعبد والتكفير عن ذنوب كثيرة ارتكبتها في حياتي؛ من منا بدون ذنوب فليرجمني بحجر.

هل كان والداي على حق عندما اعترضا على زواجي؟ كثيرًا ما أتساءل: لماذا نعد– نحن الأبناء– دائمًا نصائح الآباء بأنها تدخل غير موفق في شؤوننا، وعدم فهم لمشاعرنا وأحاسيسنا؟ ألا يمكن أن يكون الآباء أحيانًا أبعد نظرًا من أبنائهم المنقادين بعواطفهم؟ أسئلة كثيرة تتوارد إلى خاطري. أعترف أنني لا أجد لها أجوبة شافية ترضيني.
(حزيران، 2008)

ليلة القبض على القاتل

الساعة الرابعة صباحًا، لم يكد يمر على وجودي في هاواي سوى يومين حين كنت أمضي إجازتي السنوية مع زوجتي (جانيت) حتى رن جرس الهاتف، كنت أعتقد أنني في رحلة وأنه لن يزعجني أحد خصوصًا في هذا الوقت من الليل. كان المتصل مسؤول قسم التحقيقات الجنائية في ولاية منسوتا:
– أعرف أنني أزعجتك في هذا الوقت من الليل، لكن حسب معرفتي فإن الناس عندكم لا ينامون مبكرًا لأنهم

يفضلون استنشاق نسيم البحر ليلاً مع ضوء القمر.

– ألهذا اتصلت بي يا جان؟ لا تشغلني كثيرًا. هات ما عندك.

– أريدك أن تقطع إجازتك وتعود فورًا، هناك قضية مهمة يجب أن تستلمها بسرعة.

– أقطع إجازتي؟ ستقتلني زوجتي هذه المرة.

سمعت زوجتي الكلام فهبت مذعورة، وبدأت تهمس في أذني: لا تقبل يا ستيف، إياك أن تقبل!!

رد جان قائلاً:

– ستيف هناك قضية قتل، فقد عثرنا أمس على جثة امرأة مقتولة، التحقيقات مستمرة، وأريدك أن تحقق في القضية.

– والإجازة؟ وزوجتي؟ وو...

– لا تقلق، بعد انتهاء القضية هذه سأمنحك إجازة لمدة شهر على حساب المكتب إلى... فلوريدا، ما رأيك؟

– فلوريدا؟ أعود من هاواي من أجل فلوريدا؟

همست جانيت بأذني وهي تضع يديها حول رقبتي: سأخنقك إن وافقت.

تظاهرت أنني لم أسمع صوت جان فقلت له:

– ألو، جان، هل تسمعني؟ ألو لم أعد أسمعك، يبدو أن الخط قد انقطع.

فهم جان على ما يبدو ما يدور، فرد علي قائلاً:

– لا تغلق السماعة، ما رأيك بجزر الكناري؟

– جزر الكناري؟؟

سمعت زوجتي ذلك فغيرت رأيها، وهزت رأسها موافقة.

– أوكي جان، سأكون هناك في أقرب طائرة متجهة إلى الوطن.

كنت أعرف أن مهنتي كمحقق جنائي من أصعب المهن على الإطلاق، فكلما أردت الاستراحة من عناء العمل برزت قضية جديدة، فأعود من حيث بدأت من جديد.

دخلت مكتبي في قسم التحقيقات لأجد على المكتب ملفًّا جاهزًا يحتوي بعض الصور، والأوراق، ومواد القضية، قضية قتل، والقاتل مجهول، ولا يوجد أي خيط قد يساعد على معرفته.

دخل مسؤول المكتب السيد جان غرفة مكتبي ومعه عدد من المسؤولين، وقبل أن يهنئني بالسلامة قال:

– ستيف، هذه قضية شائكة، جثة فتاة وجدناها في أحد الأحراش قرب سانت كلاود، مر عليها أكثر من أسبوع، لم نجد معها أي شيء سوى ورقة صغيرة يبدو أن القاتل لم ينتبه لها فيها رقم هاتف ولكن بدون رقم المنطقة، لا نعرف للفتاة اسمًا حتى الآن، ليس لك من خيط تبدأ به سوى رقم الهاتف.

فكرت قليلا بهذا الحمل الكبير الملقى على عاتقي، ثم قلت له:

– حسنًا، أريد الكابتن لندا لتساعدني في هذه المهمة.

– لك ما أردت، لا تنس لا أريد أن أسجل القضية ضد مجهول، يجب إيجاد القاتل بأي ثمن.

سأحضره لك مقيدًا لتقتص منه العدالة، لا تقلق.

استدرت إلى لندا وقلت لها:

– لنبدأ العمل، ألدينا أية بلاغات عن فتيات مفقودات؟

ردت علي قائلة:

– يوجد بعض البلاغات، ولكنها لا تطابق مواصفات القتيلة عندنا.

– إذًا ابعثي كافة المعلومات إلى مكتب التحقيقات الفدرالية لنرى إن كان ثمة بلاغات في ولايات أخرى، لا تنسي أن تنفذي ذلك بأسرع وقت.

– أمرك.

– اكتبي عندك، أريد كافة أرقام الهواتف التي تتشابه مع الرقم الذي وجد في جيب القتيلة، من كافة مناطق الولاية، وعناوين تلك الأرقام، وأصحابها، استعيني بفريق من الموظفين لتنفيذ المطلوب.

قبل أن أغادر إلى المستشفى، لأتفحص الجثة وأعاينها بنفسي، قلت للندا:

– بلغي جان وكل رؤساء الأقسام بحظر نشر أي خبر في وسائل الإعلام عن الحادث.

– لماذا؟

– حتى لا يعرف القاتل أن الجثة قد كشف أمرها، ويأخذ احتياطات إضافية.

بعد يومين كنت متوجهًا صباحًا إلى المكتب، فإذا بجرس الهاتف يرن، لندا على الخط، سألتها على الفور:

– ما الأمر؟

– امرأة في قسم الشرطة تقول إن ابنتها فقدت منذ شهر...

لم أدعها تكمل وقلت:

– حسنًا، أغلقي الخط. أنا في الطريق إلى هناك.

عرفتها إلى نفسي، وأخذت منها كافة المعلومات الضرورية، ثم انتقلت بها إلى المستشفى لترى الجثة. كنت أتمنى أن تكون ابنتها لكي أصل إلى طرف الخيط، وعندما كانت تدقق النظر في الجثة أمامها كنت أنظر إليها بلهفة منتظرًا منها إشارة نعم، تغيرت ملامحها، أغلقت عينيها، قلت في نفسي:

– وجدتها، هذه بداية الخيط.

لكني صدمت عندما نظرت في وجهي قائلة:

– هذه ليست ابنتي.

قلت لنفسي بغضب: اللعنة فقدنا الخيط من جديد.

في المكتب كان أمامي اليوم عشرات التقارير، هناك خمسة أرقام متشابهة من مناطق مختلفة من الولاية مع الرقم المطلوب.

قلت للندا:

– هل لديك جميع عناوينهم وأسماؤهم؟

– كلها جاهزة.

– حسنا سنقوم بزيارتهم مساء اليوم لنضمن وجودهم في البيت.

في الطريق خطر على بالي فكرة، فقلت لها:

– اسمعي لندا، دعينا ندعي أننا والدا الفتاة حتى لا يخاف بعضهم، فيمتنع عن الحديث.

– لكن ذلك لا يجوز.

– دعينا الآن مما يجوز ولا يجوز، يجب الوصول إلى القاتل بأية طريقة.

مثّلنا على الناس الذين زرناهم دور الأم والأب، وقد تضامن أربعة منهم معنا، ولكن لم يكن لأي منهم علاقة بها أو سمع بها، أما الخامس، فقد اشتبه بنا بعد أن سألناه عدة أسئلة، فسألنا بشكل مباشر:

– هل أنتما محققان؟

لم نستطع أن ننفي، لأن ذلك يعرضنا للإدانة القانونية، فما إن سمع كلمة نعم، حتى هرب من الباب الخلفي، فلحقنا به، ولكنا فشلنا في إلقاء القبض عليه، فعدنا إلى بيته حيث قمنا بتفتيشه على الرغم من عدم وجود أمر قضائي بذلك، ولكن هربه دفعنا للاشتباه به.

دخلت غرفة نومه فشممت رائحة كريهة، عرفت بعدها لماذا هرب، لقد كان قبل مجيئنا يدخن الأفيون.

في اليوم التالي كان المتهم الهارب ومحاميه في مكتب التحقيقات يعلن احتجاجه، وقف جان أمامي محتدًّا متسائلاً:

– ما هذه الانتهاكات يا ستيف؟

– كان كل شيء على ما يرام، ولكنه هرب بدون سبب فاشتبهنا به.

استدرت للمحامي وسألته:

– أريد جوابًا واحدًا فقط ما علاقته بالقتيلة؟

– ليس له علاقة بها.

لكن رقم هاتفه وجدناه في جيب القتيلة.

– موكلي يقول إنه انتقل إلى السكن هناك منذ شهر فقط، وهذا الرقم حديث، حصل عليه بعد سكنه.

– حسنًا، آسف لما حدث، لكن بلغه أن لا يدخن الأفيون.

– موكلي سيطبق القانون عندما يطبقه المحققون.

لولا أن مسؤول القسم السيد جان كان يريدني أن أستمر في هذه المهمة المعقدة، لكان قد أرسل لي إنذارًا، ولكنه اكتفى في تلك المرة بتوبيخ بسيط، أعرف أنني أستحق ذلك، ولكن طبيعة عملنا المعقدة والشاقة تعرقلها الكثير من إجراءات القانون التي تتيح للمجرمين الهرب، والتستر على جرائمهم إلى حين.

كان علي بعد أن عرفت أن صاحب الرقم الأخير قد حصل عليه حديثًا أن أبدأ بمتابعة صاحب الرقم السابق، وكان أول مهمة جديدة كلفت بها لندا أن تكلف أحد العاملين بإجراء اللازم لمعرفة صاحب الرقم السابق، والحصول على كافة المعلومات عنه. لم يطل الأمر كثيرًا، فقد جاءنا الجواب، صاحب الرقم القديم يقيم الآن في ولاية تكساس الجنوبية، فهل فعلها وهرب؟ أم لا علاقة له بالضحية من قريب أو بعيد؟

جلست مع لندا في المكتب صباح أحد الأيام، وبعد استعراض ما توصلنا إليه، قلت لها:

– لندا، لنبدأ الآن بالخطوة الثانية، أريد ملفًّا كاملاً عن جميع الهواتف العمومية في كل الولاية.

– يا إلهي، ولكنها كثيرة جدًّا.

– لا بأس، فليس لدينا خيارات كثيرة.

– قد يستغرق ذلك بعض الوقت.

– حسنًا، وعليك أن تكلفي اللجنة المسؤولة عن ذلك بأنني أريد تقريرًا شاملاً عن كل هاتف، موقعه، والأرقام التي صدرت منه خلال الشهور الست الماضية.

– أوووووووووووف، مهمة قد تستغرق شهرًا.

– وبعد أن تعد كل تلك الملفات أريد أن توضع إشارة بجانب الأرقام التي تتقاطع مع الرقم الذي نبحث عنه.

– حسنًا، دعني أذهب الآن لأتابع المهمة الشاقة الجديدة.

كنا نعمل مثل خلية نحل، لكن لم أشأ أن أرهق نفسي كثيرًا، فهذه القضايا تحتاج لتروٍّ وهدوء أعصاب.

الضحية توفيت ولا مجال لعودتها، والقاتل سيقع بأيدينا آجلاً أو عاجلاً، وحتى لا نعطيه فرصة للهرب علينا التكتم على تحركاتنا، وهذا ما كان يتم تمامًا.

خلال شهر كامل وصلتنا المعلومات عن المشتبه به في تكساس بأنه لا يعرف الضحية ولم يسمع بها، ولكن الشيء المهم الجديد الذي وصلنا للتو، أن رقمًا مشابها للرقم الذي نبحث عنه في وسكانسن، كانت مكالمات تصدر من هواتف عمومية في منسوتا للرقم نفسه أسبوعيا تقريبا.

قلت لها بفرح:

– بسرعة أحضري كامل الملف وعنوان الرقم الجديد وصاحبه أو صاحبته، وعناوين الهواتف العمومية التي كانت تنطلق منها المكالمات، علينا غدًا زيارتها جميعًا.

– أراك مسرورًا جدًّا؟

– سأقبض عليه مهما كلف الثمن. أما الآن دعيني أدعوك على العشاء.

– على العشاء مرة واحدة؟

– لم لا؟

– وزوجتك؟

– لنداااااااااا!! إنها دعوة عمل.

– ها ها ها،ـــ أردت إثارتك فقط، وأين ستدعوني؟ إلى مطعم السمك رد لوبستر؟

– لا، لم أقل ذلك.

– أين تقصد إذًا؟

ابتسمت ثم قلت لها:

– إلى المكدانولد.

– مكدانولد؟ إني أتنازل لزوجتك عن هذه الدعوة.

اليوم الجمعة، يوم غير عادي حيث تكون حركة السير أكبر من المعتاد ويبدأ الناس بالتحضير للسهر حيث سيصادف اليوم التالي يوم عطلة لدى معظم الناس، لكنا مضطرون إلى التوجه إلى وسكنسن للالتقاء بصاحبة الرقم الجديد، فقد بلغنا شرطة البلد التي سنتوجه لها.

لعلها تكون أول الخيط من يدري؟

مشكلتنا دائمًا عندما نريد مقابلة أحد هي كيف سنقابله، وفي أي شكل، وهل نعترف له بحقيقتنا أم ندعي أننا أصدقاء الضحية، فالناس في الغالب يكرهون المحققين، ويخشونهم في الوقت نفسه، فهم يؤمنون في الغالب أن المحققين همهم الوحيد زج الناس في السجن بسبب وبدون سبب.

أذكر أنني التقيت يومًا بسيدة طاعنة في السن، وعندما عرفت أنني محقق استدارت لي وقالت:

– فك يو، وأشارت لي بإصبعها الأوسط.

لم أتوقع أبدًا أن ننجح في مقابلتنا مع السيدة إيمي، فقد كانت صديقة القتيلة منذ الطفولة، وكانت تلتقي بها أسبوعيا قبل أن تنتقل إلى الولاية المجاورة مع زوجها تام، فقد عرفتنا إلى اسم القتيلة ومكان سكن أمها، أما أبوها فكان قد توفي قبل سنوات في حادث سير، ولكنا لم نعرف منها الكثير عن صديق القتيلة الذي كانت القتيلة تعيش معه، كل ما عرفناه أن القتيلة واسمها ميشيل كانت صديقة لسائق شاحنة يتنقل بين الولايات، أما اسمه فلم تتذكره إيمي، لذلك ظل القاتل مجهولاً، مع أن المعلومات التي قدمتها إيمي فتحت الباب أما احتمالات كثيرة سيقودنا أحدها إلى الهدف بالتأكيد.

غادرنا بيت إيمي أنا ولندا ونحن نفكر ماذا بعد؟ كان أول شيء اتفقنا عليه هو زيارة والدة ميشيل لمعرفة بعض المعلومات الأخرى التي نحتاج إليها والحصول على صور حديثة لها.

في الصباح الباكر توجهت إلى بيت والدتها في منطقة بلومنتون بصحبة لندا، وعندما وصلنا كان الشارع يعج بالسيارات على الرغم من أن الشارع الذي تسكن فيه فرعي ولا يحتمل كل ذلك. اقتربنا أكثر من البيت حيث كانت عدة سيارات تقف في مدخله وبعض الرجال يقفون خارجه يتحدثون ووجوههم عابسة. اعتقدنا للوهلة الأولى أنهم ربما عرفوا بموت ابنتهم. أوقفنا السيارة على ناصية الشارع ثم تقدمنا نحو البيت. اقترب منا أحدهم وسألنا عن غايتنا كأنه عرف أننا غرباء عن أهل البيت. قلت له: إننا جئنا نلتقي مع السيدة ليزا والدة ميشيل، فسألني عن السبب، فأجبته أنني أحمل لها رسالة من ابنتها. هز رأسه وصمت فجأة، وكنت خلال صمته أعتقد أنه سيسألني عن ميشيل، ولكنه أجاب بصوت حزين:

– السيدة ليزا ماتت صباح اليوم.

– ماتت؟ كيف؟

– يبدو أن أجلها قد اقترب.

– وأين ستأخذون الجثة؟

– إلى المستشفى ومن هناك إلى بيت الجنازات لإلقاء النظرة الأخيرة عليها غدًا قبل دفنها.

يا إلهي ألم تمت إلا اليوم؟ كيف سنحصل على صورها؟! يقينا أنها كانت تعرف بعض المعلومات عن صديق ميشيل الذي يبدو أنه القاتل إذ لو لم يكن لكان قد بلغ عن فقدانها، ولكن كيف يبلّغ إذا لم يعرف أنها قتلت مثلاً؟

قلت لمحدثي:

– أعرف أن الوقت ربما غير مناسب للحديث في أمور عائلية، ولكن لا بد من مساعدتنا في أمر ما؟

سألته:

– هل أنت قريبها؟ هل لنا أن نأخذ بعضا من وقتك؟

– من أنتما؟ وما الرسالة التي تحملانها لوالدتها؟

قلت له وأنا أراقب تقاطيع وجهه وتأثير الخبر عليه:

– الحقيقة نحن من قسم التحقيقات، ولدينا خبر مزعج هذا ليس وقته، لكنا مضطرون لإعلامك به لكي تساعدنا لأن كل يوم يمر ليس في صالحنا.

– تحقيقات، ما الخبر أجب بسرعة؟

– ابنة أختك ميشيل توفيت، أو بالأحرى قتلت...

قاطعنا غاضبًا:

– ماذا؟ من قتلها؟ أوووووووووووه ليزا لقد ارتحت من سماع هذا الخبر. وأين هي الآن؟

– إنها في المستشفى، ويمنع دفنها حتى يتعرف إليها أحد من أهلها، ونتأكد من هويتها، ألديك صور لها في البيت؟

– طبعًا، لكن الوقت ربما غير مناسب الآن، وعلى الرغم من ذلك سأذهب للبحث عن بعض الصور ثم أتوجه معك إلى المستشفى للتعرف إليها.

– حسنًا، نرجو أن لا تخبر أحدًا الآن، فيجب أن يظل التحقيق سريًّا حتى لا تفشل خطتنا ويأخذ المجرم الحقيقي احتياطاته فلا نصل إليه؟

أصبح لدينا الآن ملف كامل عن الضحية، ولكننا لم نعثر بعد على خيط واحد يوصلنا إلى المجرم. كلما سرنا خطوة وجدنا أمامنا خطوات أخرى تبعدنا عن الوصول إلى الهدف.

ما أصعب البحث عن مجهول! ولكنه مجهول خطر يهدد حياة الآخرين، فمن قتل مرة واحدة قد يقتل غيرها، فالقتل يصبح لديه شيئًا عاديًّا، لا يثير في نفسه أية مشاعر من الرحمة، أو اليأس. يصبح القتل ساريًا في دمه لا يهمه من تكون ضحيته.

القبض على المجرمين قد يكون مهنة لي، ولكنها أصبحت مع الأيام شيئًا مقدسًا، أو عادة يومية تشبه شرب فنجان القهوة يصعب علي التخلي عنها. نعم القبض على المجرمين متعة من متعي الخاصة، لا يهدأ لي بال حتى ألقي القبض عليه، خصوصًا عندما يكون المجرم قاتلاً، فالقتل ليس فقط جريمة بشعة، ولكنها الجريمة الأكثر بشاعة، كيف يسمح شخص لنفسه أن ينهي حياة الآخرين بدم بارد؟ أرواح الناس مقدسة مهما ارتكبوا من آثام وخطايا، وعليه لا بد أن أجد ذلك المجرم الفار.

كل التحقيقات تشير إلى أن القاتل سائق شاحنة، وربما يكون صديقها، ولكننا لم نعثر عليه حتى الآن.

لدينا قائمة بأسماء كل أماكن وقوف الشاحنات التي انطلقت منها المكالمات، ولكننا لم نعرف بعد كيف نجد القاتل. تُرى لو قمنا بزيارة جميع المحلات في تلك المواقع وعرضنا صور الضحية على العاملين هناك هل يمكن لأحدهم أن يتعرف إليها؟ ماذا لو شعر المجرم بجرمه وأحس أننا نسأل عنه، سيهرب بالتأكيد؟

لم يعد لدينا خيار آخر. حملت صورتها وبدأت مع لندا في زيارة أماكن وقوف الشاحنات التي انطلقت منها مكالمات الضحية، وبدأنا بولاية منسوتا ثم الولايات الأخرى المحددة، لم ننجح في العثور على أي أحد يعرف القتيلة.

في أحد مواقف الشاحنات في منسوتا فوجئنا بإحدى الموظفات التي سألناها عن القتيلة بخروجها من المحل بعد أن غادرناه، وكانت تسير باتجاه البار، فتتبعناها، دخلت البار، بحثت بعيونها عن شيء ثم خرجت فأوقفناها، قدمنا لها أنفسنا كمحققين وسألناها عمن تبحث فلم تجب، ثم قالت بغضب:

– انصرفا عني، فك يو.

وجّهنا لها تهمة التستر عن مجرم ووضعنا القيود بيديها، ثم اقتدناها إلى سيارتنا، قلت لها:

– تسترك هذا قد يؤدي بك إلى السجن، عشر سنوات، هناك سترين الويل من تاجرات المخدرات، والسحاقيات، سيجدن في جسمك ما يبحثن عنه...

بدأت تبكي وقالت إنها لا تعرف عنه شيئا، ولا تحاول التستر عليه، ولكنها أرادت أن تخبره أننا نبحث عن صديقته التي تركته، لقد كان متضايقًا أنها رمته دون أن تخبره.

– وكيف عرفت أنها تركته؟ هل قال لك ذلك؟ أين هو؟

– لا أعرف. كان قد قال لي إنه سيكون في البار.

– هل تعرفينه؟

– لا أعرف سوى اسمه الأول.

– ما هو؟

– سكات.

تركتها مع لندا وذهبت إلى البار، فسألت البارمان بعد أن قدمت له بطاقتي المهنية:

– أين أجد سكات؟

غادرنا قبل قليل.

– هل تعرف اسمه الكامل؟

– لا، لا أعرف سوى اسمه الأول.

– وماذا أيضًا؟

– إنه من منسوتا ويعمل على شاحنة.

– هل تعرف شاحنته؟

– لا، لم أرها فهي تقف بعيدة عنا.

– كيف دفع الحساب؟

– نقدًا.

تركته وعدت إلى لندا، كانت مستاءة أنني لم أجده.

سألت الموظفة الواقفة معها:

– هل اشترى شيئًا من عندكم سابقًا؟

– نعم.

– وكيف دفع الحساب؟

– أعتقد أنه دفع في إحدى المرات عبر بطاقة الائتمان.

نظرت إلى لندا وقلت لها حسنًا دعينا نذهب.

تركنا الفتاة وبدأنا نعد لحملة إلقاء القبض على سكات.

قلت للندا:

– لقد وجدنا طرف الخيط.

– كيف؟

– اسمعي جيدًا، علينا الحصول على أمر من المحكمة يجبر هؤلاء المحلات على تقديم وصولات بطاقات الائتمان عن المدة السابقة.

نظرت إلي ثم قالت:

– لحظة من فضلك.

فتحت حقيبتها وبحثت عن شيء ما، فجأة قالت وجدته، أخرجت من جيبها وصلاً ودققت فيه جيدًا، ثم قالت لي:

– هذه الإيصالات لا تضم سوى أرقام بطاقات ولا تحتوي أسماء.

دققت النظر معها وقلت لها:

– عندك حق، لم أنتبه لذلك. إذًا علينا التوجه إلى البنوك التي تصدر بطاقات الائتمان أو إلى البنوك التي تتعامل معها المحلات، نريد قائمة كاملة بجميع الذين اشتروا من هناك عبر البطاقات عن الشهور التي سبقت قتل الضحية، بالاسم والعنوان، بعد ذلك أريد ملفًّا عن كل الأشخاص الذين يدعون سكات مع صورهم. كلفي لجنة خاصة بذلك.

لم يمض سوى أسبوع حتى كانت لدي كافة المعلومات المطلوبة، وبالتدقيق مع الموظفة التي سبق أن اتهمناها

ومع البارمان فقد عرفنا أن سكات ولسن هو المطلوب.

اليوم الخميس. القوة جاهزة لاقتحام بيته. كنا ننتظر عودته إلى البيت من سفره، وكان بعض رجالي يراقبون بيته من بعيد، وما إن جاءت الإشارة بعودته حتى هاجمناه قبل أن يستريح من عناء السفر. كنا موزعين على فرقتين؛ فرقة هاجمت البيت وأحاطت به خوفًا من محاولة هربه، وفرقة من الخبراء كانت تبحث في شاحنته عن أية أدلة لها علاقة بالقتيلة. كان سكات خائفًا من كثافة القوة.

– يا إلهي، ماذا حصل؟

– أنت متهم بقتل ميشيل صديقتك السابقة.

– ماذا؟ ميشيل؟ لا أعرفها؟

– هذا ما سنعرفه منك في السجن.

– يا أيها المسيح، السجن، أوووووووووووووه.

لم ندعه يكمل حديثه، اقتدناه مكبلاً بعد أن فتشنا بيته وشاحنته، ثم واجهناه بالتهمة في غرفة التحقيق.

صرخ في وجوهنا:

– لم أقتلها، ولا أعرف أنها قتلت. أين وجدتموها؟ لقد تركتني في ولاية تنسي.

– لماذا تركتك؟

– تخاصمنا مثل أي صديقين.

– ولم تخاصمتما؟

– لأنها تريدني أن أتوقف عن عملي كسائق شاحنة متنقل وأحصل على عمل في منسوتا فقط.

– كذاب.

– لم أكذب.

– لقد قتلتها انتقامًا لأنها تركتك.

– لكنني لم أرها منذ تركها لي.

– حسنا لماذا لم تبلغ الشرطة؟ ألا يمكن أن تكون قد خطفت؟ قتلت؟

– لم يخطر ببالي شيء كهذا لِأنها تركتني بعد مشادة حصلت بيننا في تنسي، دخلت الحمام وهي تنتظرني في المطعم خرجت فلم أجدها، وسألت العاملين هناك فلم يعرف أحد أين ذهبت، انتظرتها في الموقف حتى ساعات المساء، فلما لم تظهر عرفت أنها تركتني لغضبها مني، فقد شتمتها وكدت أضربها، ولكنني لم أفعل شيئًا غير ذلك.

– ألديك صور معها؟

– كان عندي صور كثيرة.

– وأين هي الآن؟
– مزقتها.
– لتخفي علاقتك بها؟
– لا، ولكن لم أتحمل تركها لي فقررت أن أمزق كل ما يذكرني بها.
– وبعد ذلك قررت التخلص منها كما تخلصت من الصور؟
– لا، لم أتخلص منها، هي التي تركتني.
– لماذا أنكرت معرفتك بها عندما سألناك عنها في بيتك؟
– هجومكم على البيت كان مخيفًا فاعتقدت أنها ارتكبت جريمة، وأنني سأتضرر لو صرحت بعلاقتي معها.
– هذه مبررات للهروب من العقاب.
– أي عقاب؟
– لقد كشف المختبر الجنائي بصمات للقتيلة على شاحنتك.
– هذا ليس مبررًا بأني قتلتها.
– سنترك الأمر للمحكمة لتقرر ذلك.
– حسنًا، أريد أن أوكل محاميًا ما دام الأمر وصل إلى هذا الحد.

دخل المسؤول جان الذي كان يراقب التحقيق من غرفة مجاورة على الشاشة وسأله:
– لماذا قلت لصديقك جم أن لا يذكرك بها وأن يقول لكل من يسأله عنها إنه لا يعرفها ولم يرها؟
– لأني كنت متوتر الأعصاب بعد أن تركتني ولم أدر ماذا أقول، أردت أن أنساها نهائيًّا من حياتي.
– هل ندمت لأنك قتلتها؟
– قلت لك لم أقتلها، أوقفوا التحقيق. لن أجيب على أي سؤال بدون محام. عليكم اللعنة. كل ما تريدونه هو الاصطياد فيما أقول، هل تبحثون عن المجرم أم تريدون أن تصنعوا مني مجرمًا لكي توضع الأوسمة على أكتافكم.

عندما بدأنا بإعداد كل ملفات القضية لتقديم الجاني للمحاكمة، جلست أقلب كل الملفات والأوراق الخاصة بالقضية، كنت خلال الأيام الأخيرة محتارًا لماذا يصر المتهم على أنه لم يقتلها على الرغم من كل ما واجهناه به؟ ولماذا رفض الصفقة التي قدمناها له: الاعتراف بالتهمة مقابل السجن لمدة 15 سنة بدلاً من مدى الحياة، وهو يعرف أنه إن حكم 15 سنة سيقضي منها عشرة فقط.

راودتني فكرة كنت أحاول إبعادها عني، ألا يمكن أن يكون سكات بريئًا؟ لكن كل الإشارات تدينه، ربما لأنه غبي لا أكثر، لا زلت أتذكر زوجتي عندما ناقشتني آخر مرة بأمر المجرم، حيث قالت لي:
– ستيف، إياك أن تظلم أحدًا وتدخله السجن دون أي جرم ارتكبه.

قلت لها:

– حبيبتي، مهمتي القبض على المجرمين وليس الأبرياء.

– ستيف تعرف أن الإنسان يمكن أن يخطئ في اتخاذ القرار، لذلك لا تتسرع، لأن سجن بريء سيزعج المسيح الذي نريد بركته على أولادنا.

– صحيح، لو كنت بريئًا وسجنني أحدهم سأشعر بالمرارة، والإهانة، ماذا سيقول الناس عني، وكيف سأخسر عملي.

كنت أقلب الملفات، لعلي أعثر على ثغرة فيها. فجأة توقفت عند فواتير صديقة ميشال في وسكانسن وبدأت أقلب الصفحات، وأدقق في أرقام الهواتف التي اتصلت بصديقتها في وسكانسن أو التي اتصلت هي بها، لاحظت أن رقمًا واحدًا لا غير آتٍ من شمال منسوتا لمدة نصف دقيقة فقط، ولم يخرج أي رد على تلك المكالمة، رقم وحيد لم يثر اهتمامنا على ما يبدو من قبل.

رفعت سماعة الهاتف واتصلت بصديقة ميشال:

– أريد أن أستفسر منك عن رقم غريب ورد إليك قبل أيام من تاريخ قتل صديقتك ولم يتكرر الرقم ولم تتصلي به؟

– لا أتذكر.

– أرجو أن تراجعي فواتيرك وتردي علي، الرقم هو...

بعد دقائق اتصلت بي لتخبرني:

– آآآآآآآآه تذكرت، هذه مكالمة جاءت من ميشال تسأل عني لكني كنت في الحمام، وعندما خرجت اتصلت بها، ولكن لم يرد علي أحد، لهذا ربما لم تسجل كمكالمة صادرة عني.

– عظيم، هل كانت هذه إذًا آخر مكالمة.

– للبيت، نعم لم أنتبه لأنني لم أتحدث في تلك المرة.

ضربت يدي على الطاولة، ثم ناديت لندا من مكتبها:

– لندا، لقد وجدت خيطًا جديدا للقضية ربما علينا التروي قبل محاكمة سكات.

شرحت لها القصة، وقدمت لها رقم الهاتف:

– لندا، أريد منك معرفة صاحب الرقم المذكور.

لكنها عادت بعد نصف ساعة لتقول ليك

– إن الرقم ليس له صاحب لأنه أحد الأرقام التي يشتريها الناس مقدمًا.

اللعنة يبدو أنها اشترت رقمًا ولم توفق بالاتصال بصاحبتها أو أنها قتلت بعد ذلك.

– لماذا لا تبحثي مع شركات الهاتف إن كان ثمة اتصالات خرجت من الرقم المذكور، أريد الِأرقام مع تواريخ

الاتصالات وأسماء الأرقام المتصل عليها.

في اليوم التالي كان عندي كل ما أريد. حملت القائمة وطلبت من لندا مرافقتي إلى منطقة دولوث. لم يكن الموضوع سهلاً لنعرف من أول بيت ذهبنا إليه أن صاحب الرقم المذكور هو روبرت مكلوسكي، فحصلنا على عنوانه، وكنا أمام بيته في المساء.

قرعنا الجرس، فخرج رجل يبدو في الثلاثينيات من عمره. سألته عن ميشال، فقطب حاجبيه:

– ميشال من؟

– صديقتك؟

– ليس لي صديقة اسمها ميشال، وأنا متزوج.

قدمنا له الصورة فأنكر معرفتها، سألته:

– أليس رقم الهاتف... رقمك؟

– أوووه كان هذا رقمي منذ مدة، ولكن الهاتف سرق مني.

– هل بلغت عن ذلك للشرطة؟

– لا، فقيمة الهاتف لا تستحق أن تفتح لها الشرطة ملفًّا للبحث.

– هل لك أن تخبرنا منذ متى سرق أو ضاع هاتفك؟

– منذ شهرين تقريبًا.

– هل يوجد تاريخ محدد؟

– نعم، لأنني في اليوم التالي اشتريت بدلاً منه.

بحث في أوراقه ثم قال لنا في اليوم الفلاني.

– ولكن مكالمات صدرت علن الهاتف بعد التاريخ المذكور.

– حسنًا، بلغوني مَن صاحبها لأذهب وأدق عنقه، فهو بالتأكيد سارق الهاتف.

– حسنًا، سنعود لك فيما بعد إن احتجنا إليك.

تركناه وتوجهنا للرقم ما قبل الأخير فكان محل بيتزا هات. لحسن الصدف فإن بيتزا هات يحتفظ في الحاسوب بكل المتصلين وماذا طلبوا، لكن لم نستفد من معلوماته، فقد كان المتصل قد طلب قطعة بيتزا كبيرة وحضر ليأخذها بنفسه.

اللعنة، توجهنا إلى الرقم الذي قبله، فكانت فتاة يبدو عليها أنها تتعاطى الكوكايين، حيث كانت دائمًا تضع يدها على أنفها، سألتنا بجفاء:

– من أنتما؟

– نحن من قسم التحقيقات؟

– ما لي ولكم؟

– أردنا أن نسألك سؤالاً واحدًا فقط؟

– ما هو السؤال؟

– هل تعرفين صاحب رقم الهاتف التالي...؟

– لا أعرفه.

– لكن صاحبه اتصل بك.

– قلت لا أعرفه، انصرفا، انتهت الزيارة.

مسكت يدها بسرعة، ووضعت عليها القيود، وطلبت من لندا أن تمسكها بينما كانت تصرخ وتصيح وتشتم، دخلت غرفتها، ثم خرجت حاملاً معي كيسًا صغيرًا من الكوكايين كنت قد أحضرته خصيصًا معي، قلت لها:

– لقد وجدت في غرفتك بضعة غرامات من الكوكايين، كافية لتضعك في السجن عشر سنوات.

– لا يوجد عندي كوكايين.

– حسنًا، سنفحص دمك اليوم.

– ماذا تريدون مني؟

– اسم ومكان المتصل بك، وعلاقتك به.

– ومن يضمن لي أنكما ستتركاني؟

– أعدك إن تحدثت أن أتركك وأرحل وآخذ معي الكيس.

كانت خائفة وهي تتحدث، خائفة من تهديدنا، وخائفة من المجرم الذي تريد التستر عليه.

لكنها يبدو آثرت الحديث على التستر، فقالت لنا:

– إنه ديفيد ماكنزي، وإنه سائق شاحنة، وهو لم يقصد سرقة الهاتف، ولكنه وجده ولم يعرف صاحبه.

كانت تعتقد أننا نبحث عنه لأنه سرق الهاتف، سألتها:

– هل أنت صديقته؟

– سابقًا.

– لماذا يتركك وأنت جميلة ليذهب مع غيرك؟

– لأنه تافه.

أخرجت من جيبي صورة القتيلة ميشيل وقلت لها:

– انظري هذه صديقته الجديدة، التي سرق منها مائة دولار قبل يومين وهاتفها أيضًا.

نظرت إلى الصورة فتغير وجهها ثم قالت:

– أنا لا أعرف هذه الفتاة ولم أرها.

– لكني لم أسألك إن رأيتها.
– إذًا ماذا تريدون مني؟ لقد قلت لكم عنه كل شيء.
– لكنك لم تقولي شيئًا واحدًا؟
– ما هو؟
– لماذا تغير لونك عندما رأيت الصورة؟
– لأنها جميلة...
– تعرفينها؟
– لا، لا.
– ألم تشاهدينها معه؟
– أبدًا.

كنت واثقًا أنها ستتصل به فور خروجنا من عندها، فأمرت بالقبض عليها وتركها في السيارة مقيدة حتى نقبض عليه. تركناها وخرجنا نبحث عن ديفيد مكانزي، وعلى الفور أعددنا قوة كافية لدهمه بعد أن حددنا مكانه. أحضرناها معنا لتتعرف إليه.

كانت طوال الطريق تصرخ وتشتمنا وتطالبنا بإطلاق سراحها، فوضعت على فمها قطعة لاصق حتى نرتاح من زعقيها.

فوجئ ديفيد باعتقالنا له، وقد أكدت صديقته السابقة بريندا، أنه هو الذي سرق الهاتف، فأمرت بإخلاء سبيلها.

أنكر ديفيد معرفته بميشيل، لكن تحليل المختبر الجنائي اكتشف شعرة صغيرة كانت تحت الكرسي بجانب السائق.

انهار أخيرًا...

بدأ يصرخ:

– لم أقتلها، لكني أعرف من قتلها.
– اعترف، وسنخفف عنك الحكم.

دقائق وبدأ يشرح لنا كيف قامت صديقته بريندا بقتلها خنقًا بالليل، لأنها اعتبرتها قد سرقت صديقها منها.

توقف ثم قال:

– كانت صديقتي لديها نسخة من مفتاح بيتي، فجاءت في إحدى الليالي ونحن نيام وخنقتها، وعندما أفقت على صوت هز السرير كانت قد فارقت الحياة.
– لماذا لم تبلغ عنها.

– خفت من المشاكل، فاضطررت إلى نقلها إلى أحد أحراش سانت كلاود ورميتها هناك.
– لكن كيف نعرف أنك صادق، ولا تحاول إلصاق التهمة ببريندا؟
– احضروها وسأواجهها بذلك.

انطلقت قوة جديدة لإعادة اعتقال بريندا، بعد ساعات جاءنا الرد:
– وجدناها في بيتها منتحرة.
– انتحرت؟
– هل وجدتم شيئًا يدل على الجريمة؟
– وجدنا ورقة بخط يدها تقول فيها ديفيد هو السبب.
ضربت الطاولة بيدي، ثم صحت:
– اللعنة، انتحرت؟
– بجرعة كبيرة من الكوكايين.

هل أسدل الستار على القضية؟ هل تكفي ورقة كتبت بخط يدها تقول إن صديقها ديفيد هو السبب لإنهاء ملف القضية التي شغلتنا شهورًا طويلة؟ هل كانت بريندا القاتل الحقيقي أم ديفيد الذي ساعد في إخفاء الجريمة، والتستر على القاتل الحقيقي؟ بماذا يختلف القاتل عمن يتستر عن الجريمة ويساعد في إخفائها؟

السادة المحلفون..
حتى لو صدق ديفيد ماكنزي ولم يشترك في قتل الضحية التي يقول إنها أصبحت صديقته بعد أن تخلى عن بريندا، فقد قبل أن يرمي بها في الأحراش لتكون طعامًا للحيوانات البرية، ليساعد القاتل الحقيقي في إخفاء جريمته.
لقد فعل كل ذلك وهو بكامل قواه العقلية، لذلك أطالب عدالتكم بإدانته.

(كانون ثان – يناير، 2008)

عادل سالم في سطور

– أديب عربي ورئيس تحرير «ديوان العرب»، مقيم حاليا في الولايات المتحدة.

– ولد في البلدة القديمة من القدس في فلسطين في الأول من تموز، يوليو (١٩٥٧) في حي (القرمي) الكائن ما بين المسجد الأقصى، وكنيسة القيامة.

– أبوه الحاج محمد عبد الرحمان وزوز من مواليد القدس عام ١٩٣٥ وتوفي في الولايات المتحدة عام ٢٠٠٨، وأمه الحاجة آمنة عبد الجواد وزوز مولودة في الخليل عام ١٩٣٩.

– اعتقل من قبل السلطات الإسرائيلية مرتين بتهم سياسية، عام (١٩٧٨)، وعام (١٩٨٢)، حيث أمضى (٣٣) شهراً خلف القضبان، تنقل خلالها بين سجون عديدة منها سجن بئر السبع، وسجن نفحة الصحراوي، وسجن الرملة، وسجن بيت ليد وغيرها. وساهم مع كتاب آخرين في تطوير الحركة الثقافية في السجن حيث شارك في تحرير بعض المجلات الاعتقالية المنسوخة باليد بالتعاون.

– فرضت السلطات الإسرائيلية عليه الإقامة الجبرية عام (١٩٨٧) في القدس لمدة ستة أشهر حيث منعته من مغادرة مدينة القدس وفرضت عليه الإقامة في البيت منذ مغيب الشمس حتى شروقها وإثبات وجوده يومياً في مقر الشرطة في القشلة في البلدة القديمة.

– عاش عادل سالم طفولته حتى سن ١٩ عاماً في البلدة القديمة من القدس، متنقلاً بين أزقتها وشوارعها الضيقة. وتنقل بين عدة مدارس فيها هي: المدرسة العمرية الابتدائية ومدرسة دار الأيتام الإسلامية في المرحلة الإعدادية وأخيرا الكلية الإبراهيمية في المرحلة الثانوية.

– ساهم في مرحلة من مراحل حياته (١٩٧٨ – ١٩٨٧) في العمل النقابي الفلسطيني حيث بادر بتأسيس وإحياء بعض النقابات العمالية في القدس وكان عضواً في مجلس الاتحاد العام للنقابات العمالية وشغل لفترة عضوية اللجنة التنفيذية للاتحاد حيث كان مشرف الاتحاد الثقافي.

– شارك عام (١٩٨٨) في ورشة عمل في الأمم المتحدة عن واقع العمال الفلسطينيين تحت الاحتلال.
– شارك في محاضرة عن أوضاع العمال الفلسطينيين في الضفة والقطاع بدعوة من اتحاد العمال الكندي عام (١٩٨٨).
– شارك في العديد من الندوات الشعرية وتعرض لملاحقة السلطات الإسرائيلية عام (١٩٧٨) بعد قصيدة ألقاها في احتفال جماهيري بمناسبة الأول من أيار في قاعة سينما الحمراء في القدس كان عنوانها: «لن تسقط راية ثورتنا».

– من خلال ديوان العرب أسس لمسابقة أدبية عربية سنوية كانت الأولى في الشعر عام (٢٠٠٣) والثانية في القصة القصيرة عام (٢٠٠٤) والثالثة في أدب الأطفال عام، (٢٠٠٥)، والرابعة في الشعر الحر عام عام (٢٠٠٧) والخامسة في مجال الرواية العربية للشباب عام (٢٠١٠)، والسادسة في مجال المجموعة القصصية.
– ساهم في تأسيس تجمع أدبي فكري للكتاب الفلسطينيين لكنه استقال منه لاحقاً، لغياب النهج الديمقراطي في العمل.
– اعتقل في الولايات المتحدة بتهمة التآمر على مصلحة الضرائب الأمريكية وسجن لمدة عامين ومنع من السفر منها لمدة ثماني سنوات.

الإصدارات الأدبية

– صدر له رواية «قبلة الوداع الأخير» عن المؤسسة العربية للنشر في بيروت في نهاية ٢٠١٢.
– صدر له عن «دار الجندي» في القدس رواية «عاشق على أسوار القدس» عام ٢٠١٢.
– صدر له أيضا في العام ٢٠١٢ مجموعة قصصية جديدة عن مؤسسة شمس للنشر، بعنوان «يحكون في بلادنا».
– صدر له عن «دار الجندي» في القدس الطبعة الثانية من رواية «عناق الأصابع» عام ٢٠١٢.
– صدر له في العام ٢٠١٢ أيضا مجموعة قصصية عن المؤسسة العربية للنشر في بيروت بعنوان «يوم ماطر في منيابولس»، وتضم المجموعة قصصا قصيرة عن واقع الجالية العربية في الولايات المتحدة.
– صدر له عن دار شمس في القاهرة عام ٢٠١٠ روايته الأولى «عناق الأصابع»، رواية الأسرى الفلسطينيين في سجون الاحتلال، تقع الرواية في ٣٦٨ صفحة من الحجم المتوسط.
– صدر له عن المؤسسة العربية للنشر في بيروت عام (٢٠٠٧) مجموعة قصصية بعنوان «ليش ليش ياجارة؟»، المجموعة تقع في ١٤٤ صفحة من الحجم المتوسط.
– صدر له عن دار «الكلمة» للنشر في مصر عام (٢٠٠٦) دراسة توثيقية بعنوان «أسرانا خلف القضبان»، الكتاب يقع في (٢٢٠) صفحة من الحجم المتوسط وهو دراسة توثيقية عن الأسرى العرب في سجون الاحتلال الصهيوني البغيض.
– صدرت له مجموعة قصصية بعنوان «لعيون الكرت الأخضر»، صيف (٢٠٠٦) عن المؤسسة العربية للنشر في بيروت، والمجموعة في ٢٨١ صفحة من الحجم المتوسط وتدور حول الجالية العربية المغتربة في الولايات المتحدة الأمريكية.
– أصدر ديوانين شعريين هما «عاشق الأرض» عام (١٩٨١)، و«نداء من وراء القضبان» عام (١٩٨٥).

– أصدر دراسة بعنوان «الطبقة العاملة الفلسطينية والحركة النقابية في الضفة والقطاع من عام (١٩٦٧) إلى (١٩٨٧)» الدراسة عبارة عن كتاب من الحجم الكبير وعدد صفحاته (١٥٠) صفحة صادرة عن مركز الدراسات العمالية في رام الله عام (١٩٩٠).
– أصدر الدراسة السابقة نفسها عن المصدر نفسه باللغة الإنجليزية عام (١٩٩١).
– كتب في عدة صحف أميركية ناطقة بالعربية من عام (١٩٩١) حتى العام (٢٠٠٢) في شتى شؤون المعرفة والثقافة والأدب والشعر.
– أسس موقع ديوان العرب عام (١٩٩٨) الذي يحظى بسمعة طيبة في أوساط المهتمين بالشأن الثقافي والأدبي، ويشغل الآن رئيس التحرير.

- نشر العديد من قصائده ودراساته في مجلات وصحف يومية وشهرية مطبوعة مثل «الفجر الأدبي»، و«الكاتب»، و«الاتحاد»، و«البيادر الأدبي»، و«البيادر السياسي»، و«النهار»، و«الشعب»، «وفلسطين الثورة»، و«الحرية»، و«العودة»، وغيرها.
- لديه رواية جاهزة بانتظار الطباعة هي: «الحنين إلى المستقبل».